مكتبة الحروب الصليبية

٤

[illegible] وحركات اليقظة العربية

[illegible]

[illegible]

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص . ب ٧٤٩

مكتبة الحروب الصليبية (٤)

الوحدة وحركات اليقظة العربية
ابان العدوان الصليبي

دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

" قرآن كريم "

مقدمة الطبعة الثانية

يسعدني أن أقدم المجلد الرابع في سلسلة « مكتبة الحروب الصليبية » التي تصدرها دار النهضة العربية ببيروت بلبنان ، تحت اسم « الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي » ، وكانت طبعته الأولى قد صدرت سنة ١٩٦٧ .

والكتاب عبارة عن دراسة مركزة في فلسفة الحروب الصليبية . وهي تتعلق ، أساساً بالأطراف التي ساهمت في هذه الحروب ، ومسرح الأحداث ، وموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين المسلمين والصليبيين وقتها ، وما يتصل بهذه القضايا من مفاهيم مثل الأفعال وردود الأفعال ، والهجمات والهجمات المضادة ، واتخاذ سياسة الهجوم أو الالتزام بسياسة الدفاع ، والأسباب والمسببات وما يترتب عليها من نتائج وخواتيم . ثم ارتباط ذلك كله بالظروف الموضوعية ، من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها ، التي سادت العالمين الاسلامي والمسيحي انذاك ، وما يمكن أن نستخلصه من وراء ذلك من آراء وأفكار .

المؤلف

بيروت (لبنان) يناير ١٩٨١

مقـــدمة

لا يهدف هذا البحث إلى دراسة العدوان الصليبي بتفاصيله ودقائقه . فهذا موضوع كتب فيه وفى مختلف جوانبه أساتذة أخصائيون فى الشرق والغرب. ثم أنه موضوع أكبر من أن تتسع له بضع صفحات . وإنما يهدف هذا البحث أساسا إلى إلقـاء نظرة موضوعية شاملة على منطقة الشرق الأدنى العربى التى كانت مسرحا للعدوان الصليبي مدة ثلاثة قرون أو تزيد ، وذلك فى محاولة للتعرف على الجنبات الرئيسية للعدوان، واستخلاص النتائج الجوهرية المرتبطة بها ، وما تكشف عنه من آراء واستنتاجات وأحكام لها مغزاها ودلالتها .

لقد أصبحت الحركة الصليبية معروفة لنـــا من وجهة النظر الغربية . لكنها ، إذ تعتبر عدوان توسعى استعمارى تعرض له العالم العربى فى عصر من عصوره ، لا تزال تنتظر المزيد من البحوث والدراسات التحليلية ، لاستجلاء ما غمض من خباياها . وهذا هو عين النقص الذى يشوب الكتب والمراجع الأجنبية ، التى تناولت تاريخ تلك الحركة على نحو يعـــبر عن وجهة نظر واحدة ، اتسمت بعدم الحيـــدة وخرجت لا تصور الحقيقة والواقع تصويرا صادقا .

وكان طبيعيا أن تعتمد هـذه الدراسة التحليلية على العديد من المصادر عربية وغير عربية . فأما المصادر العربية فمنهاما هو خطى لم ينشر بعد ، وما هو مطبوع . وأما الأصول الأجنبية فمنهـا اللاتينى والبيزنطى والأرمينى؛ وبعضها لا يزال بلغاته الأصلية التى كتب بهـا ، والبعض الآخر ترجم الى اللغات الأوروبية الحديثة . يضاف الى ذلك المراجع العربية والأجنبية فى تاريخ

مصر والشرق الأدنى فى العصر الاسلامى ، وتاريخ العدوان الصليبى، وتاريخ العصور الوسطى بصفة عامة .

والأمل كبير أن يكون هذا البحث وغيره من البحوث التى ظهرت أخيرا فى المكتبة العربية ، فاتحة لدراسات جديدة فى هـذا الميدان تلقى الضوء على ما خفى من زواياه ، وتكشف للعروبة حركة من سلسلة الحركات العدائية التى تعرضت لها على مدى التاريخ.

والله أسأله السداد

الاسكندرية فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٦ المؤلف

البحر المتوسط « بحيرة عربية »

فى أخريات القرن الخامس الميلادى سقطت روما فى أيدى العناصر الجرمانية المتبربرة ، وبذلك انتهت دولة القياصرة الأقدمين، وأقام الجرمان على أنقاضها ممالك لهم فى غربى البحر الابيض المتوسط. هذا ، بينما انتقل الأباطرة الرومان إلى الشرق ، وجعلوا من القسطنطينية عاصمة لدولتهم الجديدة، ونعنى بها دولة الروم الشرقية أو الدولة البيزنطيـة التى كانت تسيطر فى ذلك الحين على شبه جزيرة البلقان والحوض الشرقى للبحر المتوسط [١] .

هكذا أنهارت الدولة الرومانية القديمة، وبدأت العصور الوسطى فى جو من الفوضى والاضطراب . وفى ذلك يقول المؤرخ الشهير ادوارد جيبون E. Gibbon فى كتابه المسمى « انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، انه انما يمسك بقلمه لكى يسرد سيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط التى تغلبت فيها البربرية والدين على النظام والحضارة [٢] . والمقصود بذلك تغلب

---

(١) Cf. N.F. Cantor(ed.),The Medieval World, New York, 1963, 10, 15, 67 ff. ; J.L. LaMonte, The World of the Middle Ages, New York, 1949, 5 ff., 40 ff.; S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1960, 73, 85, 93, 98 ff.; S. Painter, A History of the Middle Ages, London, 1966, 18 ff., 33 f., 62 ff.

(٢) أنظر رأى جيبون فى الكتاب التالى: Cantor, op. cit., 10-11 ـ راجع أيضا تعليق كولتون على رأى جيبون فى كولتون (ج. ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ الاسكندرية ١٩٦٤ ـ ص ١٠ ـ ١١ و ١٣ .

الجرمان والمسيحية على الجهاز الرومانى العتيق ؛ أو بكلمة أخرى انهيار المدنية وبداية البربرية فى التاريخ الأوروبى.

واستمر الغرب الأوروبى ودولة الروم يعانيان من حالة الضعف هذه حتى أوائل القرن السابع الميلادى . ففى العقود الأولى من هذا القرن وقعت فى شبه الجزيرة العربية أحداث كان لها أهميتها البالغة، وآثارها البعيدة المدى فى تطور التاريخ البشرى . إذ ظهر الاسلام يدعو الناس عامة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ، ودانت لها كافة القبائل العربية المشتتة المتنازعة ، التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هذا الأساس قامت الدولة العربية الفتية، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح ، نشرا لدعوتها ، ودفاعا عن كيانها ، وتأمينا لمجتمعها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . فانطلقت لتصطدم بالدول المتاخمة لها ، وأصبح الكفاح بين العرب والروم من ناحية ، وبين العرب وأهل الغرب من ناحية أخرى ، أمرا واقعا ، بل ضرورة وسياسة اقتضتها سلامة الدولة العربية وأمنها .

وفى هذه المرحلة التزم كل من الروم واللاتين جانب الدفاع بسبب الضعف الذى انتابهم ، فى وقت كانت تتقدم فيه الأمة العربية ، بعد أن اتحدت وتآلفت ، تقدما سريعا فى الجبهتين الشرقية والغربية . ففى الجبهة الشرقية احرزت انتصارات سريعة متلاحقة ، فامتلكت خلال القرنين السابع والثامن بلاد الشام وشرقى آسيا الصغرى مصر وشمال إفريقية وبعض الجزر فى البحر المتوسط . أما فى الجبهة الغربية ، فقد امتدت الفتوحات العربية حتى

أسبانيا ، ومنها عبر العرب جبـال البرانس ووصلوا إلى فرنسا نفسها، وإن لم تساعد الظروف على بقائهم هناك . كما استولوا على جزيرة كريت فى القرن التاسع ، ووقعت صقلية وجنوبى إيطاليـا فى قبضتهم فى أوائل القرن العاشر [١] .

ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الغربيين ، من قدامى وحديثين ، قد نظروا إلى حركة الفتح نظرة حقد وتعصب ، بينما حاول البعض الآخر أن يقلل من شأن قوة العرب وحمـاسهم ، مما لا يتفق بحـال مع الحق والامانة العلمية [٢] .

كانت هذه مقدمة لابد منها ، إذ هى أول تجربة حية أثبتت أن اتحـاد العرب وتكتلهم يمكن أن يأتى بالمعجزات . ويكفى أن ميزان القوى فى هـذا الكفاح الحيوى بالنسبة للعرب ــ والذى امتد منــذ الفتح حتى أوائل القرن العاشر ــ كان فى صالحهم . فقد انتشرت على طول شواطىء البحر الأبيض المتوسط مدن وبلدان عربية ، ذات حضارة عربية ، وتتكلم اللسان العربى ؛ مما دعا العـالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne إلى أن يقول بحق ان ذلك

---

(١) Cf. F. Lot, Les Invasions Barbares, Paris, 1942, 13 ff. ; R.E. Sullivan, Heirs of the Roman Empire, New York, 1960, 9 - 10, 24 ff.; P. K. Hitti, History of the Arabs, London, 1964, 139 ff., 312 ff., 493 ff., 602 ff.; F. Gabrieli, Les Arabes , French Trans. by Marie de Wasmer, Paris, 1963, 57 ff.; S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. 1, Cambridge, 1954, 14-19; Painter, op. cit., 191.

(٢) أنظر عن ذلك محمـد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٣٤ ــ ص ١ ــ ١٠ .

البحر أصبح بحيرة عربية خالصة ، بعد أن كان فيما مضى بحرا رومانيا [1] ، أو « بحرنا » Mare Nostrum حسبما كان الرومان القدماء يسمونه [2].

غير أن هذا النصر الباهر الذى أحرزه العرب نتيجة لتوحيد صفوفهم ، لم يلبث أن أعقبته ضربات مؤلمة . وكانت النكسة الأولى فى القرن العاشر عندما انقلب ميزان القوى بين الشرق والغرب. إذ أخذت أوروبا، بشقيها الشرقى والغربى، تستعيد من قوتهـا ، وتفيق من الضربات التى وجهها العرب إليها . بينما انتاب العالم العربى بعض الضعف والوهن ، بسبب الانحلال السياسى الذى دب فى أوصال الدولة العباسية شرقا ، وفى القوى العربية غربى البحر المتوسط. وكان لهذا الانقلاب فى القوى ، ولتغير مركز الثقل بين أوروبا والعالم العربى فى العصر الاسلامى ، آثاره الوخيمـة على العرب وحدودهم المتصلة بكل من الروم واللاتين . إذ تمكنت دولة الروم من الاستيلاء على بعض المدن فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، وكان ذلك فى عهد الأسرة المقدونيـة . كما استطاع النورمان الاستيلاء على جنوبى إيطاليا وعلى صقلية. وأحرز الغربيون أيضا عدة انتصارات فى اسبانيا ، أهمهـا استيلاؤهم على طليطلة سـنة ١٠٨٥ [3] .

---

(١) H. Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, London, 1961, 2—3; idem, Medieval Cities, English Trans. by F. D. Halsey, Princeton, 1948, 15 - 16.

(٢) LaMonte, op. cit., 3 — 4.

(٣) LaMonte, op. cit.; 275 ff.; Lot, op. cit., 31 f., 285 ff.; Painter, op. cit., 193 ff., 197 ff. أنظر أيضا عمر كمال توفيق الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة (٩٦٣ — ٩٦٩ م) — الاسكندرية ١٩٥٩ — ص ٨ وما بعدها ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية — ج ١ — القاهره ١٩٦٣ — ص ٥٦ وما بعدها.

وكان هذا الانحسار التدريجي في القوى العربية في شرقي البحر الابيض المتوسط وغربيه نتيجة لضعفهم وتفككهم وتخاذلهم. وهـذه ظاهرة دورية في تاريخ العرب في العصر الإسلامي، وحتى العصر الحديث.

لقد خرج العرب من هذه التجربة القاسية التي امتدت من القرن العاشر حتى قيام الحركة الصليبية بدرس أفادهم فيما بعد. إذ أوضحت أن انقسام العرب هيأ للروم واللاتين فرصة الانقضاض على دولتهم والتهام جانب كبير منها. وكان من أول نتائجهـا أن استهان الروم وأهل الغرب بالعرب، واتخذوا حيالهم سياسة هجومية، في حين التزم هؤلاء جانب الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم بشكل عام.

الحركة الصليبية عدوان استعمارى

فى غمرة هـذه الأحداث التى ألمت بالعالم العربى فى فترة ضعفه وتفككه ، خرجت من أوروبا فى أواخر القرن الحـادى عشر دعوة عدوانيـة تعارف المؤرخون على تسميتها بالحركة الصليبية . ولقد بدأت هذه الحركة رسميا عندما أعلن أحد بابوات روما ، وهو اربان الثانى [1] ، مولدها رسميـا فى خطبة ألقاها فى مؤتمر كليرمون الكنسى بفرنسا فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م ، ودعا فيها أهل الغرب إلى حمل الصليب للاستيلاء على الأراضى المقدسة ، وتأسيس مستعمرات لاتينية لهم هناك . وقد حفظ لنا نص الخطبة المذكورة التى تقطر بالحقد والكراهيـــة ضد العرب والاسلام كثير من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا أحـداث تلك الفترة من الزمن ، وعلى رأسهم فوشيـه دى شارتر Foucher de Chartres ، وبودرى دى بورجى Baudri de Bourgueil ، وجيبرت دى نوجان Guibert de Nogent [2] . وتروى المراجـع أن المحتشدين لسماع خطاب البابا صاحوا بعد سماعه صيحتهم المشهورة « هذه هى إرادة الله » ، وسرعان ما حملوا شارة الصليب شعارا لهم . ومن هنا اصطبغت الحركة بالصبغة الدينية ، حتى أن أحد الكتاب الغربيين القدامى ممن شاهدوا

---

(١) عن اربان الثانى ودوره فى الحركة الصليبية ، أنظر جوزيف نسيم يوسف «الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية» ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ١٦ ـ الاسكندرية ١٩٦٣ ـ ص ١٩٨ ـ ٢٠٥ .

(٢) Foucher de Chartres, R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 323-4; Baudri de Bourgueil, R.H.C. -H.Occ., IV, Paris, 1879, 12-5; Guibert de Nogent, R.H.C.-H.Occ., IV, 137-40.

مولدها، وهو روبرت الراهب Robert le Moine قال انها كانت من عمل الله وليست من عمل الانسان [١] . وايده فى ذلك أحد كتابهم المحدثين، وهو الكونت بول ريان Paul Riant ، عندما قال بأنها حروب دينية خالصة ، وأن دوافعها واتجاهاتها دينية بحتة ، وهدفها الأول والأخير تخليص فلسطين وكنيسة القيامة من أيدى العرب [٢] .

ولكن أحدث البحوث التاريخية ، البعيدة عن الميل والهوى ، أثبتت بما لايدع مجالا للشك أن الحركة الصليبية لم تكن من صنع الله ولكنها كانت من صنع الانسان ، وأنها كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية ، وأن غرضها الحقيقى هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين ، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب اللاتينى يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربى وكسر شوكته ضمانا لبقاء نفوذهم فى المنطقة [٣] .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين المحدثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبنى جنسهم ، والذين نظروا إلى الحركة الصليبية من وجهة نظر غربية بحتة، قد أعترفوا ضمنا أو صراحة بحقيقة اتجاهات تلك الحركة . ومن هؤلاء

---

(١) Robert le Moine, R.H.C.-H.Occ., III, 423.

(٢) P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, A.O.L., I, Paris 1881, 2.

(٣) تناولت ذلك بالتفصيل فى كتاب العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى — الاسكندرية ١٩٦٣ — ص ٥١ — ٩١ .

المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه R. Grousset الذى قال فى كتابه « خلاصة التاريخ » ان الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق العربى [١] . بينما قال زميله جورج تريفيليان G. Trevelyan الانجليزى فى كتابه « مختصر تاريخ انجلترا » ، ان الحركة الصليبية هى حركة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب [٢] . أما الاستاذ برنارد لويس B. Lewis فقد أوضح فى كتابه « العرب فى التاريخ » ، أن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب ، تحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفسانى [٣] . ويتحدث المؤرخ المعروف هنرى وليم كارلس ديفز فى كتابه « اوربا فى العصور الوسطى » عن الحروب الصليبية تحت عنوان « الاستعمار الأوربى [٤] » . ويزيد ديفز الأمر وضوحا فيقول : « وكثيرا ما كان ينتحل الباعث الدينى بقصد القاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية ، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب » . وفى موضع آخر يقول انه كلما ازداد اقتراب زعماء الحملة الأولى من الأراضى المقدسة « كلما ازداد وضوحا أن انقاذهم للكنيسة المقدسة ليس إلا اعتبارا ثانويا » . ويستمر قائلا بأن الشغل الشاغل للحكام اللاتين فى الثمانين سنة التى اعقبت تأسيس المستعمرات الأربعة

---

(١) R. Grousset, The Sum of History, Oxford, 1951, 182.

(٢) G. Trevelyan, A Shortened History of England, Aylesbury, 1960, 141.

(٣) B. Lewis, The Arabs in History, London, 1958, 140.

(٤) ديفز (هـ. و. ك.) : أوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ١٧٨ .

فى الأرض المقدسة هو « توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس » .[1]

هذه شهادة عدد من الكتاب الغربيين الحديثين عن حقيقة اتجاهات الحركة الصليبية. ومن حسن الحظ أنه ظهر فى المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة العديد من الكتب والبحوث الجادة الواعية التى تناولت تلك الحركة أو أحد فصولها تناولا يتسم بالدقة والأمانة العلمية ، فأماطت اللثام عن دوافعها الحقيقية. يقول الدكتور جمال الدين الشيال[2] ان الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من حملات انما «تمثل المرحلة الأولى من مراحل الاستعمار الأوربى لمنطقة الشرق الأدنى العربى .... وهى انما لبست مسوح الدين واتخذت شارة الصليب لأن العصر كان عصر تزمت دينى». ويعزز هذا الرأى قول الدكتور محمد مصطفى زيادة[3] من ان «الحركة الصليبية دلت على اتجاهات توسعية نائية جغرافيا عن فلسطين .... وان زعماء الصليبيين، حتى الأولين منهم ، لم يكن غرضهم جميعا خدمة الدين فحسب» . وجاء فى مقدمة الدكتور حسن حبشى[4]

---

(١) ديفز : نفس المرجع السابق — ص ١٨٣ و ١٩٥ و ١٩٦ . وفى ص ١٨٨ من المرجع نفسه يوضح ديفز كذلك أن النزعة خلال الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا كانت لا تزال نزعة نحو المطامع المادية للفوز بالسلطة وانتزاع ولايات جديدة من المسلمين .

(٢) جمال الدين الشيال « وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى» — المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ١٩٥٨/٥٧ — الاسكندرية ١٩٥٨ — ص ٦ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة — القاهرة ١٩٦١ — ص ٤ — ٥ .

(٤) كلارى (ر.) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين — ترجمة الدكتور حسن حبشى — القاهرة ١٩٦٤ — ص ٥ .

للترجمة العربية لمذكرات روبرت كلارى عن الحملة الرابعة، أن التاريخ لا يعرف «حربا شنها الغرب الأوربى تحت ستار الدين ثم كشف القناع عن حقيقة طواياه الاستعمارية مثل الحرب التى خرجت فيها أوربة عام ١٢٠٢ م بحجة انقاذ المسيحية واستخلاص بيت المقدس ومحاربة مصر، ثم غيرت الحملة اتجاهها منذ البداية وأسفرت عن وجهها ، فهاجمت امبراطورية الشرق النصرانية وهى الامبراطورية البيزنطية . » ويزيد فيليب حتى [1] الأمر وضوحا فيقول فى كتابه « تاريخ العرب » انه ليس كل الذين حملوا الصليب كانت تدفعهم اعتبارات دينية. فكثيرون أمثال بوهيمند كانوا يطمعون فى تأسيس امارات لهم هناك. كما كان لتجار بيزا والبندقية وجنوه مصالح تجارية يسعون الى تحقيقها. فضلا عن فئات عديدة من المغامرين واللصوص والقتلة والمجرمين وقطاع الطرق والخارجين على القانون

(١) Hitti, op. cit., 636.

وقد تعرض لهذه المسألة أحد الكتاب الغربيين القدامى ، ويدعى أرنولد أوف ليبك ، عندما ذكر فى حوليته التى كتبها فى بداية القرن الثالث عشر ، والتى تشغل الفترة من سنة ١١٧٢ الى سنة ١٢٠٩ ، ان الصليبيين لم يشتركوا فى تلك الحملات بسبب الحافز الدينى، ولكن رغبة فى الربح والكسب والاثراء: أنظر A. H. Hamdy, « The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. X, Alexandria, 1956, 80. كما تكشف الأميرة أنا كومنينا فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها الامبراطور الكسيس كومنين، عن حقيقة دوافع العدوان الصليبى عندما أشارت إلى أطماع اللاتين وجشعهم وحبهم الزائد للمال، واستغلالهم العامل الدينى كستار لتحقيق أغراضهم ومآربهم : أنظر Anna Comnena, The Alexiad, English Trans. by Elizabeth Dawes, London, 1928, 248, 250, 252. ويكشف خطاب الكسيس كومنين الذى أرسله الى روبرت الأول أمير الأراضى الواطئة حوالى عام ١٠٨٨ ، والذى يقال إنه كان من الأسباب التى أدت إلى قيام الحركة الصليبية ـ يكشف=

وطغام الشعوب وأرقاء الأرض، ممن قدموا من مختلف بلدان الغرب مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والأطماع والسلب والنهب وأقلها بلا شك العامل الديني .

وهكذا ، تحت ستار الدين قامت جحافل الصليبيين من أوروبا متجهة صوب الشرق الأدنى العربي . وفي سنوات قلائل أحرزت عدة انتصارات سريعة لم تكن تحلم بها في يوم ما . فلقد تمكن الصليبيون في الفترة من مايو ١٠٩٧ الى يونيو ١٠٩٨ من القضاء على سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال الشام ،ومن تأسيس أول مستعمرتين لهما ، ونعني بهما امارة الرها في أعالي الفرات وامارة انطاكية في أعالي الشام وتم هذا كله في حوالي عام[1].

ولنا أن نتساءل عن السر في هذا التقدم السريع الذي أحرزه الأوروبيون، وهل يرجع الى صفات خاصة تميزوا بها دون العرب والسلاجقة، كالجرأة أو الاستبسال في القتال حتى الموت والاستشهاد . يجيب عن هذا السؤال المؤرخ شارل أومان Ch. Oman في كتابه «فن الحرب والقتال في العصور الوسطى» فيقول ان القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية العسكرية ، كما كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والترتيب والالمام الكافي بالتكتيكات الحربية السليمة ، وانها كانت تتكون من جيوش اقطاعية متفرقة لاتجمع بينها قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء . ومع ذلك فقد أحرزت انتصارات كبيرة على قوات كانت تفوقها اعدادا وترتيبا وتنظيما وتدريبا . وان الحقيقة التي

= هذا الخطاب عن مدى استغلال النعرة الدينية لاثارة أوروبا الغربية في حرب عدائية ضد المسلمين في الشرق . أنظر نص الخطاب في H. Hagenmeyer, Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, 1901, 129 ff. - راجع أيضا المناقشات حول الخطاب المذكور في مقالي « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » - ص ١٨٨ - ١٩٥ .

(١) أنظر عن ذلك Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matt. d'Edesse, R. H. C.—Doc. Arm., t. I, Paris, 1869, 37—38; Foucher de Chartres, R.H.C.-H.Occ., III, 336-7.

تكمن وراء تلك الانتصارات لهى أعمق من ذلك بكثير . فهى ترجع أولا وقبل كل شيء الى انقسام العرب والسلاجقة على انفسهم وقتذاك (١) .

كانت هذه احدى مراحل الهزيمة التى نزلت بالشرق الأدنى العربى فى عصر من عصور الضعف التى مر بها عند بداية العدوان الصليبى ، وهى استمرار للحالة التى كان عليها اعتبارا من القرن العاشر ، وقد ترتبت عليها أسوأ العواقب وأوخمها . فقد كان الخلاف مستحكما بين ملوك العرب وامرائهم . ففى مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية فى بغداد ، وقد دب فى كيانهما الانحلال والهزال . فالضعف باد ، والانقسام بينهما سياسى ودينى ، والتناحر على أشده . وهكذا كان كلا الفريقين آخذا فى التدهور ، بينما القبائل التركمانية ، ومن بينها السلاجقة ، تختطف من أملاك الفاطميين والعباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الاقاليم ، كما حدث مثلا عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين . وحتى سلطنة السلاجقة كانت هى الأخرى قد انقسمت إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث فى أنطاكية وحلب ودمشق (٢) . ويؤكد هذا الوضع أحد المؤرخين العرب ممن

---

(١) Ch. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, I, London, 1924, 233. — أنظر أيضا عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٦ - ص ١٥٢ .

(٢) Cf. Grousset , Sum of Hist., 17:—4; idem, Histoire des Crois., Vol. I, Paris, 1918, pp. VI—VIII, XLVIII—LVIII; Runciman, op. cit., I, 75—8; K M. Setton (ed.), A History of the Crusades, I, Philadelphia, 1958, 96—7; W. Stevenson, The Crusaders in the East, = Cambridge, 1907, 19—20; Hitti, op. cit., 633—5.

عاصروا بدايات العدوان الصليبي وكتبوا عنها ، وهو ابن القلانسي ، إذ ذكر أنه لو كان صاحبا حلب ودمشق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ، ولحالا بينه وبين التوغل فى آسيا الصغرى وسورية الشمالية . ولكنهما ، بالرغم من الخطر الداهم الذى كان يهددهما ، وبدلا من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك ، لم يبذلا مجهوداً ايجابيا فى سبيل وقف تقدمه فى الشرق العربى (١) .

يحدث كل هذا والعدو الفرنجى واقف يتربص بالعرب الدوائر ، وهو مغتبط أشد الاغتباط لهذا الانقسام الواضح فى صفوفهم ، وكان هذا غاية ما يتمناه . وإذن ، لا عجب إذا كانت هذه حال العرب فى الشرق من أن ينتصر عليهم الصليبيون . ولا عجب أيضا أن يتم هذا كله فى سنوات معدودات .

= وللمزيد من المعلومات عن الانحلال السياسى والتدهور الاقتصادى فى أواخر عهد الخلافة الفاطمية ، أنظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ – مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية – المؤرخون الشرقيون – جـ١ – باريس ١٨٧٢ – ص ٥٥٠ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٨ – ص ٢٨٠ و ٢٨٣ ؛ المقريزى : كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة – نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٠ – ص ١٨ – ٢٧ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر – جـ٣ – آستانة ١٢٨٦ هـ – ص ٤٠ – ٤٢ . راجع أيضا جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية – جـ ١ – وثائق الخلافة والوزارة – الاسكندرية ١٩٦٥ – ص ٢٧ وما يليها .

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق – بيروت ١٩٠٨ – ص ١٣٤ – ١٣٥ .

بربرية الفرنج وتحضر العرب

على أية حال ، بعد أن فرغ الصليبيون من تأسيس أول مستعمرتين لهما فى الشرق واصلوا الزحف إلى بيت المقدس الذى بلغوه فى أوائل يونيو من عام ١٠٩٩ ، وكان اذ ذاك فى حوزة الفاطميين(١). وكما سقطت مدن آسيا الصغرى وسورية الشمالية فى قبضـة الأوروبيين الغربيين ، سقط بيت المقدس بعد حصار استمر حوالى أربعين يوما. ومما تجدر الاشارة اليه هنا، أنه بعد أن دخل الأوروبيون المدينة المقدسة أخـذوا يتعقبون الأهالى العزل الآمنين الذين وجدوا أنفسهم وقد أحاط بهم العدو من كل جانب، فلجأوا إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى للاعتصام بها من بطش الفرنج وغدرهم، اعتقادا منهم أنه مهما بلغ تعطش أولئك القوم لسفك الدماء ، فلن يجرؤا على اقتحام الأماكن المقدسة واتيان المنكر فيها. ولكن الفرنج ـ كعادتهم دائما ـ لم يرعوا حرمة بيوت الله ، فأخذوا يعملون فيهم سيوفهم دون رحمة أو هوادة ، ودون مراعاة لعامـل السن أو الجنس ، حتى سالت الدماء أنهارا، وخاض فيها الغزاة إلى ركبهم . وهذه الفظائع أيدها وشهد بها اثنـان من مؤرخيهم ممن حضروا المذبحة ، وهما ريمون داجيـل Raimond d'Agiles ، والبرت دكس Albert d'Aix(٢).

---

(١) حول استيلاء الفاطميين على البيت المقدس من السلاجقة قبيل الحملة الأولى ، أنظر ابن القلانسى : نفس المرجع ـ ص ١٣٥ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ـ جـ ٢ ـ القاهرة ١٢٨٥ هـ ـ ص ١١ .

(٢) Raimond d'Agiles, R H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866, 201 ff.; Albert d'Aix, R. H. C. — H.Occ., IV, Paris. 1879, 470 ff. هذا وقد تحدثت أنا كومنينا ابنة الامبراطور الكسيس كومنين باسهاب عن وحشية =

وقد أمدنا الكتاب العرب ، وبخاصة ابن القلانسى ، وأبو الفداء ، وابن الوردى ، وابن كثير ، والمقريزى ، وابن العماد الكاتب ، بالعديد من الأمثلة الدالة على وحشية أولئك القوم وتعصبهم وقسوتهم أيام العدوان الصليبي[١].

ولم يكتف المغيرون بذلك ، بل رفعوا القناع عن وجوههم ، وكشفوا عن حقدهم الدفين على العروبة والاسلام، وذلك عندما حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية سموها «معبد السيد» Templum Domini . كما استخدموا المسجد الأقصى لصالحهم، وأطلقوا عليه باللاتينية اسم «معبد سليمان» Templum Solomonis[٢].

ويلاحظ أن هذه كانت نفس السياسة التى سار عليها الصليبيون بصفة عامة

= أولئك القوم، عندما تعرضت الحملة الشعبية التى سبقت الحملة النظامية المعروفة بالحملة الصليبية الأولى : أنظر عن ذلك Anna Comnena, The Alexiad, 251

وفيما يتعلق بالاستيلاء على بيت المقدس أنظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق — ص ١٣٦ وما بعدها . كما تناول الدكتور حسن حبشى تفاصيل المعركة فى كتابه « الحرب الصليبية الأولى » — القاهرة ١٩٤٧ — ص ٨١ وما بعدها : أنظر أيضا Grousset, Hist. des Crois., I, 153 - 163; Runciman, op. cit, I, 279 - 288.

(١) أنظر عن ذلك ابن القلانسى: نفس المرجع — ص١٣٦ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر — ج ٣ — ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر — ج ٢ — ص ١٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ — ج ١٣ — القاهرة ١٣٥٨ هـ — ص ٨٣ — ٨٤ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — ج١ — القاهرة ١٢٧٠ هـ — ص٢١٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — ج ٥ — القاهرة ١٣٥١ هـ — ص٦٦.

(٢) أنظر عارف باشا العارف : تاريخ القدس — القاهرة ١٩٥١ — ص ٧١ — ٧٢ و ٧٤ .

فى جميع حملاتهم العدوانية ضد العرب . فعندما أغاروا على دمياط سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) فى عهد الملك الكامل محمد ، أحالوا مسجد المدينة العظيم الى كنيسة لاتينية كاثوليكية ، وعملوا على تثبيت شعائرهم بهـا . كما أبطلوا الطقوس التى جرى عليها المسيحيون الشرقيون ، وأحلوا محلها طقوسهم . وهذا هو نفس ما فعلوه عندما أغاروا على المدينة بعد ذلك التاريخ بثلاثين سنة فى عهد الصالح نجم الدين أيوب[١]. فقـد كان العرب فى نظرهم ـ مسلمون أو مسيحيون شرقيون ـ هراطقة لأنهم على غير مذهبهم . ولقـد بذلوا قصارى جهدهم لصبغ الشرق الأدنى العربى بصبغة كاثوليكية بحتة ، مما يكشف عن أحـد دوافع الحركة الصليبية . ويؤكد هذا الاتجاه المؤرخ الغربى ارنست باركر E. Barker ، عندما ذكر فى كتابه « الحروب الصليبية » أن الكنيسة اللاتينية كانت تطمع فى نشر الكاثوليكية فى جميع أنحـاء العالم العربى المعروف وقتذاك ، ولو أدى ذلك الى القتال المسلح[٢]. كما أوضح الدكتور عبد الحميد حمدى محمود فى دراسته التحليلية عن فيليب دى مزيير وهيئة فرسان آلام المسيح التى دعا الى انشائها فى أواخر القرن الرابع عشر ، أن من بين أهداف هذه الهيئة العمل على نشر العقيدة

---

(١) راجع عن ذلك السيوطى : حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ـ جـ ٢ ـ القاهرة ١٣٢٧ هـ ـ ص ٢٨ ، أبو الفداء : المختصر ـ جـ ٣ ـ ص ١٢٨ ، ابن الوردى . تتمة المختصر ـ جـ ٢ ـ ص ١٣٧ . ومن المصادر الأجنبية، راجع:
Rothelin, Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin, R.H.C. - H.Occ., II, Paris, 1859, 594; Joinville, Histoire de Saint Louis, Paris, 1874, 98; cf. also Grousset, Hist. des Crois., III, 444.

(٢) أنظر باركر (ارنست) : الحروب الصليبية ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٩ .

الكاثوليكية فى الأراضى الاسلامية [١]. وغير خاف أن فترات الضعف والتفكك التى ألمت بالعرب ، قد ساعدت أولئك القوم على التمادى فى تحقيق أطماعهم ، وفى ارتكاب تلك الشرور والآثام .

وجدير بالذكر فى هذا المقام انه كان يقابل مظاهر الوحشية والقسوة والغدر والتعصب التى تميز بها العدوان الصليبى على المشرق العربى ، صورة أخرى مخالفة تمام الاختلاف ، ونعنى بذلك سماحة العرب ووفاءهم بالعهد وكرمهم ونبل اخلاقهم وانسانيتهم . ومصادر الحركة الصليبية ، من عربية وغير عربية ، غنية بالامثلة الدالة على ذلك . نذكر منها على سبيل التمثيل المعاملة الانسانية الكريمة التى عامل بها صلاح الدين الايوبى سكان بيت المقدس من الفرنج بعد سقوط المدينة فى قبضته سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧) .[٢] وكذلك حسن معاملة المصريين لاسيرهم الملك الفرنسى لويس التاسع عندما وقع فى

---

(١) A. H. Hamdy, " Philippe de Mézières and the New Order of the Passion, " Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Part I, Vol. XVII, Alexandria 1964, 56; Part II, Vol. XVIII, 1964, 12.

(٢) Runciman, Hist. of the Crusades, II, 466 — ونجد أمثلة عديدة على حلم صلاح الدين وعفوه ومروءته فى كتاب ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ٣١ و ٣٢ ـ ٣٣ و ١٥٨ ـ ١٥٩ · أنظر أيضا جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية ـ ص ٢٠ و ٢٣ . وللمزيد من المعلومات عن سماحة العرب وتحضرهم ، أنظر A.H. Hamdy, " The Western Attitude to Islam," 81 – 82, 84.

قبضتهم فى أواسط القرن السابع الهجرى (أواسط القرن الثالث عشر الميلادى) [١] .

وعلى أية حال ، فقد انتهى الامر بوقوع فلسطين فى قبضة الغربيين فى منتصف يوليو من عام ١٠٩٩ ، بعد أن ظلت فى أيدى العرب أكثر من أربعة قرون ونصف . وبذلك تحققت للفرنج احلام كانت تداعب خيالهم فى يوم ما . وأسسوا مستعمراتهم الصليبية فى تلك الأرض العربية ، وجعلوا على رأسها أحد زعمائهم الذى قسمها إلى امارات اقطاعية وزعها بين زملائه من القادة اللاتين ، مستغلين فى ذلك فرصة تفكك العرب وانقسامهم . وفى ذلك يقول المؤرخ مارشال بلدوين M. Baldwin ، انه على ضوء تجارب الغرب المعروفة فى التوسع والاستعمار ، يمكن اعتبار المستعمرات الصليبية التى تم تأسيسها فى شرقى البحر المتوسط ، هى الفصل الأول فى تاريخ أوروبا الطويل فيما وراء البحار [٢] .

---

(١) قال الكتبى فى مؤلفه « عيون التواريخ » ـ جـ ٢٠ ـ لوحة ٢٥ ـ نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ ، ان السلطان المعظم توران شاه بن الصالح ايوب أكرم أسيره الملك لويس ، وأقام عنده من يقوم بخدمته ، كما رتب له كل مايحتاج اليه من طعام وشراب .

راجع ايضا ابن العماد : شذرات الذهب ـ جـ ٥ ـ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٦ ـ القاهرة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ ـ ص ٣٦٦ .

(٢) M. W. Baldwin, The Mediaeval Church, New York, 1960, 031.

هكذا انتهى الدور الأول من الكفاح بين العرب واللاتين ، بانتصار ساحق للقوات المعتدية أحرزته فى بضع سنوات . ولنتمعن قليلا فى أحداث هذا الدور تاركين تفصيلاته ومعاركه . لقد تميز – كما رأينا – برجحان كفة الصيليبين الدخلاء على العرب أصحاب البلاد . وتم هـذا فى وقت كان فيه الشرق الأدنى العربى منقسما على نفسه مما أعجزه عن مواجهة العدوان الغربى ، ومما هيـأ للأوربيين فرصة تحقيق اتجاهاتهم التوسعية فى المنطقة ، بعد أن اتخذوا الدين قناعا لنشاطهم المعادى للعرب والاسلام .

توازن القوى بين العرب والفرنج

ليس من العسير أن تدرك أن أهـل الغرب كانوا يعلمون تماما ، ومنـذ اللحظة الأولى ، أنه بوسع العرب فى مصر وبلاد الشام ، إذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم وتكتلت قـواهم ، فى صدق واخـلاص ، أن يدفعوا عنهم الخطر الصليبي ، وأن يفلحوا فى القضاء عـــلى الفرنج بشتى السبل . ثم أن العرب أنفسهم لم ينسوا أن مالحقهم من خسارة ، وماأحرزه أولئك الأجانب من مكاسب خاطفة فى بداية حركتهم ، إنما كان ـ فى الدرجة الأولى ـ بسبب ضعف القوى العربية وانقسامها وتفتتها . وكانوا يدركون جيـدا أنهم كلما اتحدوا ، كان ذلك بشيرا بحركة يقظة وافاقة ، تعقبها حملات مضادة على الغزاة واماراتهم فى الشرق . ففى اتحادهم قوة ، وفى قوتهم قضاء أكيد على اللاتين وعلى كل أثر لهم. بينما فى انقسامهم ضعف ، وفى ضعفهم خذلان لهم ، وتمكين لنفوذ أعدائهم فى المنطقة [1] .

لقد انصرف الحكام العرب بسبب المنازعات والحروب التى قامت بينهم عن الجهاد ضد الغزاة القادمين من الغرب . وغير خاف أنه لو كان قد قـدر لهم الاتحاد عند قيام الحرب الصليبية الأولى ، ولو كانوا قد نبذوا أسباب الفرقة والخلاف ، لما تمكن اللاتين إطلاقا من احراز أى نصر عسكرى أو سياسى فى فلسطين ، ولقضى العرب عليهم قبل أن يصلوا إليها ويقيموا مستعمراتهم

---

(١) تناول الدكتور حسن حبشى فى مؤلفه « نور الدين والصليبيون » ـ القاهرة ١٩٤٨ ، بالبحث والدراسة والتحليل حركة الافاقة والتجمع الاسلامى فى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) .

بها . ولو قدر لهم الاتحاد عندما حل الصليبيون بأراضيهم ، ونسوا ما بينهم من خلافات ، وغلبوا الصالح العربي العام على المصالح الشخصية ، لما أتاحوا للدخلاء فرصة العمل على تثبيت دعائم دولتهم ، ولاستطاعوا أن يحفظوا فلسطين من عبث الطارق الدخيل .

ومع ذلك، فبالرغم من هذا النجاح المصطنع الخاطف الذى حققه الفرنج ، فاننا نلمس بوضوح أن مجتمعهم الاقطاعى [1] الذى أقاموه بالشرق بدأ متداعيا متهالكا منهارا ، ولم تتوافر فيه مقومات الدولة بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح . لقد ولد المجتمع الصليبي ضعيفا هزيلا لايقوى على الوقوف على قدميه ، ولم توجد فيه سمات الأمم والحكومات ، كالآداب والعرف والتقاليد والجيش القوى أو الثروة العامة ورءوس الأموال النامية . ولذلك ظل هذا المجتمع الغريب عرضة للتقلبات والهزات والأزمات العنيفة ، ونهبا للكوارث والويلات التى كانت تحل به بين الحين والحين . لقد كانت عوامل الضعف تنخر كالسوس فى مستعمرات اللاتين بالشرق الأدنى منذ اليوم الأول، نذكر منها ضآلة مواردهم المالية ، وقلة المحاربين الذين كانوا تحت امرتهم ، وتضارب مصالحهم ، وتباين أهوائهم ، واختلاف أجناسهم ، وانحلالهم الخلقى، وفتور

---

(١) حول الحكم الاقطاعى الصليبي فى الأراضى المقدسة ، أنظر كوبلاند (ج. و.) وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زياده ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٢٤-٢٥. وللمزيد من التفاصيل عن مفهوم الدولة فى المجتمع العربى الوسيط ، أنظر هارتمان (ل. م.) وباراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ـ ص ١٠٣ ـ ١٢١ .

الحماس الديني عندهم بشكل ملحوظ . فضلا عن الخلاف والمنازعات المستمرة بين الفرنج الجدد الوافدين من الغرب والفرنج القدامى الذين استوطنوا فى الشرق ، حول المصالح الخاصة وامتلاك الأراضى . وأخيراً يجب ألا ننسى أن العداوة كانت قائمة بين الحاكمين والمحكومين . لقد شعر أولئك الدخلاء بأنهم يعيشون بين أصحاب الحق الشرعى الذين يتطلعون إلى اليوم الذى تتحد فيه صفوفهم ، توطئة لتوجيه ضربتهم القاضية ، واسترداد أراضيهم المسلوبة (١) .

وكان يقابل هذا التدهور التدريجى فى امارات الصليبيين ، شعور الشعوب العربية فى المنطقة أن وجود تلك الامارات بين ظهرانيها ، أصبح يشكل خطرا جسيما يجب عليها المبادرة باستئصاله قبل أن يستفحل ويسرى فى بقية أجزاء العالم العربى . وقد أدرك العرب أن كل يوم يمر دون توحيد جبهتهم الداخلية وتقويتها ، فيه خسارة محققة ، وفيه تعويق وتأخير لعملية الجهاد الأكبر .

وشاءت الظروف السيئة الا يظهر على المسرح وقتذاك زعيم يستطيع تكوين جبهة عربية قوية متحدة ضد أولئك القوم . وكان الفرنج يواجهون فى هذه الفترة المبكرة أمراء متفرقين متخاصمين حسبما أسلفنا. فاستغلوا هذه الظروف

---

(١) أشار إلى ذلك بالتفصيل والتحليل كل من رينيه جروسيه فى الجزء الثانى من موسوعته عن الحروب الصليبية ، وستيفن رنسيمان فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » . أنظر Grousset, Hist. des Crois., II, 24 ff., 310 ff., 609 ff.; Runciman, Hist. of the Crusades, II, 291 ff., cf. also Hamdy, "The Western Attitude to Islam," 77 - 78, 81, 81.

واعتمدوا على سياسة الايقاع والتفريق بين السلاجقة والحكام العرب تمكينا لنفوذهم ومصالحهم.

ومع زيادة الخطر على المشرق العربى، بدت فى الافق بوادر افاقة ويقظة إعتبارا من السنوات الأولى من القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى). إذ بدأ العرب يستشعرون مدى الخطر الماثل أمامهم، وأخذوا يعملون على توحيد صفوفهم، ولم شملهم لمقاومة الدخلاء وطردهم من ديارهم. وظهرت تباشير هذه اليقظة بشكل خاص فى مصر والعراق وشمال الشام، على هيئة وثبات عربية لم تكن قد اختمرت أو نضجت بعد فى حركة واحدة موحدة. نذكر منها تحالف صاحب حلب مع الفاطميين بمصر ضد امارة انطاكية اللاتينية فى مستهل ذلك القرن. وكذلك محاولات أتابكة الموصل ودمشق لتكوين محور يطوق ممتلكات اللاتين فى الشمال والشمال الشرقى. وكانت هذه المحاولات الجزئية بين مد وجزر، ولم تؤت ثمارها المرجوة لأنها هاجمت بعض معاقل الافرنج مثل إمارات الرها وطرابلس وانطاكية قبل أن توحد جبهتها تماما، الأمر الذى لم يمكنها من تحقيق النصر النهائى وقتذاك [1].

كل هذا أوجد حالة من التوازن بين الفريقين : العرب أصحاب الديار

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل ـ مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون ـ جـ ٢ ـ قسم ٢ ـ ص ٣٣. راجع أيضا حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ـ ص ٩ ومابعدها. ومن المصادر الأجنبية، أنظر Albert d'Aix, R. H. C.- H. Occ., IV, 670; Matt. d'Edesse, Extraits, R. H. C.- Doc. Arm., I, 19-4, 96-7.

والفرنج الدخلاء ، بحيث لم يتمكن أى منهما فى هذا الدور الثانى من الكفاح من إحراز نصر حاسم على خصمه ، وهو الدور الذى تناوله بشىء من الاسهاب والتحليل المؤرخ رينيه جروسيه وزميله ستيفن رنسيمان .

وقد وجدت عدة ظروف ساعدت الغزاة فى المحافظة على كيانهم المتداعى بالشرق الأدنى العربى آنذاك ، على الرغم من الظروف السيئة المحيطة بهم . نذكر منها سياسة بناء الاستحكامات والقلاع ، وتحصين المدن الساحلية ، واستغلالهم كل انقسام بين الحكام العرب ، والعمل على بذر بذور الشقاق بينهم . ثم قدوم نجدات هزيلة أو جماعات قليلة العدد من الحجاج الأوروبيين المسلحين ، وإن كان ذلك بصفة غير منتظمة وباعداد غير كافية . يضاف إلى ذلك عامل التزاوج السياسى الذى درجوا عليه للربط بين اماراتهم المتنازعة فيما بينها . وأخيرا استعانة الفرنج بالجماعات الرهبانية العسكرية ، كالداوية والاسبتارية والتيوتونية ، وباساطيل الجاليات الايطالية التجارية فى جنوه وبيزا والبندقية ، فى الاستيلاء على الموانى العربية بالساحل الشامى ، نظير صفقات يتقاسم فيها الطرفان المكاسب والاسلاب [1] .

ولولا تلك الظروف لربما انتهى الأمر فى هذا الدور بتفوق العرب على الصليبيين الذين أصبحوا محاطين من الشمال والشرق والجنوب الغربى بقوات أعدائهم القوية ، التى كانت تنتظر الفرصة المواتية للقيام بدورها الايجابى فى المنطقة . لكل هذا بات الغزاة القادمون من الغرب يعلمون تماما أنهم هالكون

---

(١) عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية ١٩٥٨ ـ ص ٧٣ - ٧٦ و ١٦٤ ومابعدها .

لامحالة ، ولم يكن أمامهم إلا أحد أمرين كلاهما مر : أما أن ينجوا بأنفسهم عن طريق البحر عائدين إلى ديارهم ، وأما أن يقـذفوا فيه بواسطة قوات أعدائهم عندما يحين الوقت المناسب . وعلى أية حال ، فقد كان البحر هو المنفذ الوحيد بالنسبة لهم ، سواء رحـلوا بمحض اختيارهم أو أجـبروا على الرحيل .

هذا عن اللاتين ، اما العرب فلم يكن أمامهم هم أيضا فى مرحلة التوازن هذه سوى سبيلين لا ثالث لهما : أما أن يسدوا على الفرنج الطريق الساحلى شرقى البحر المتوسط . ولم يكن هذا بالأمر المستطاع وقتذاك ، نظرا للقلاع والموانى التى كان الغزاة يتحصنون بها على طول الساحـل . ثم أن إحراز النصر النهائى عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج ، بسبب ما قد يحدث من ثغرات داخل الجبهة العربية نفسها قبل استكمال توحيدها ، قد يستغلها العـدو لتحقيق أغراضه . وهناك شواهد عديدة على ذلك يمكن أن نستشفها من خلال الصراع اليومى بين الطرفين . هذا عن الحل الأول ، أما الحل الثانى فهو أن يبادر العرب بتكوين جبهة قوية متحـدة من أقصى الشمال فى الشام والعراق إلى أقصى الجنوب فى مصر ، بحيث يمكنها الاطباق على مستعمرات الغزاة من جميع الجهات ، وبذلك يصبح من السهل دفعها بقوة وعنف نحو البحر حتى تنكمش وتتضاءل إلى ان ينتهى الأمر بزوالها .

يقظة العرب فى القرن السادس الهجرى

(ق ١٢ م)

هذا ما حدث بالفعل فى الدور الثالث والأخير من العدوان الصليبى، وهو الذى أثبتت فية اليقظة العربية وجودها وآتت ثمارها. ففيه برزت القوى العربية الفتية التى أخذت على عاتقها مهمة اتمام توحيد الجبهة العربية المفككة، وإقامة دولة قوية متماسكة، يمكنها مقاومة الفرنج ودفع خطرهم. وقد تمخضت هذه الحركة. عن ظهور شخصيات عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود[1] وصلاح الدين الأيوبى الذين عرفوا كيف يشقون طريقهم، وكيف يحشدون القوى العربية، ويثيرون الحماس وروح الجهاد فى نضال عنيف ضد الفرنج. وكانت النتيجة أنهم تمكنوا فى سنوات قلائل من توحيد الجبهة العربية من برقة غربا إلى الفرات شرقا، ومن الموصل وحلب شمالا إلى النوبة واليمن

---

(١) Runciman, op. cit., II, 325–344. 403–435; Grousset, op. cit., 62 ff., 303 ff., 650 ff – وحول جهاد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ضد الفرنج، أنظر أبن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق – ص ٢٧٩ – ٢٨٠ و٣٣٣ و ٣٣٩ – ٣٤٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب – بيروت ١٩٠٩ – ص ٢١٩؛ ابن الاثير: اتابكة الموصل – ص ١١٨ – ١٢٥ و ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ – ٢٢٤ و ٢٣٣ – ٢٣٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب – نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – ج ١ – القاهرة ١٩٥٣، وبخاصة صفحات ٧٢ – ٧٥ و ٨١ – ٨٣ و ١٢٠ – ١٢٥ و ١٢٧ – ١٢٨ و ١٣٤ – ١٣٦ و ١٤٣ وما بعدها. راجع أيضا Grégoire le Prêtre, Chronique, R. H. C. — Doc. Arm., I, Paris, 1869 , 157.

جنوبا ، فى دولة واحدة لهـا حاكم واحـد ، مركزها القاهرة ، ويعمل لها العدو ألف حساب . وبذلك تم تطويق المستعمرات الصليبية بحزام قوى من كل جانب . ولم يكن أمام الفرنج هـذه المرة سوى البحر . وحتى من هذه الناحية أصبح مركزهم مهـددا بالخطر ، لأن الأسطول المصرى القوى كان واقفالهم بالمرصـاد [١] . وقد انتابهم الخوف والفزع ، حتى لقد قال وليم الصورى الذى عاصر هذه الحقبة وشاهد احداثها ، ان هذا التغيير الجوهرى الذى طرأ على القوى العربيـة قد وقع على رءوس الغربيين وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مصيبة كبيرة لمصالح مستعمراتهم فى فلسطين [٢] .

لقد أصبح كل شىء معدا لتوجيه الضربة القاصمة بعد أن قضت حركة اليقظة العربية على كل امل للغزاة فى الامتداد والتوسع ، بل وفى مجرد البقاء على قيد الحياة . وجاء هذا أيام صلاح الدين الأيوبى . فبعد أن اطمأن إلى سلامة الكيان العربى الواحد ، قام بجهاده المعروف ضد الصليبيين ، والذى انتهى بهزيمتهم هزيمة ساحقة فى موقعة حطين فى ربيع الآخر ٥٨٣ هـ (يوليو

---

(١) وفى هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيال «وقد كانت سياسة زنكى تهدف لتأليف جبهة إسلامية متحدة متكاتفة ليتمكن من مناضلة الصليبيين ، ثم سار على نهجه ابنه نور الدين محمود بن زنـكى ، فبذل جهودا طيبة لتكوين الجبهة العربية الاسلامية الموحدة» و« كان (صلاح الدين) يريد أن يعمل على توحيد الشام ومصر فى جبهة إسلامية واحدة تستطيع أن تقف فى وجه الصليبيين وتقضى على ملكهم» . أنظر : وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى ـ ص ٧ و ١٣ .

(٢) Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, R. H. C. - H. Occ., I, 2e. p., Paris, 1844, 895-7.

١١٨٧ م) ، وطردهم من البيت المقدس فى رجب من نفس العام (أكتوبر ١١٨٧ م) (١) ، اى بعد شهر تقريبا من موقعة حطين . وبذلك اعتدل ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب ، وانكمشت امارات الغزاة فى رقعة ضيقة بالساحل الشامى . وتوالت انتصارات العرب ، وانكسرت كل الحملات التى شنها الصليبيون منذ ذلك التاريخ . فحين قامت الحملة الصليبية الثالثة بعد تحرير القدس بعامين لاعادة غزوها ، فشلت فى مهمتها . كما انتهى أمر الحملات التى تعرضت لها مصر خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر

---

(١) حول جهاد صلاح الدين ضد الفرنج والحملة الثالثة ، أنظر ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ٢١ ـ ٢٣ و ٤١ ـ ٤٣ و ٤٥ و ٤٨ ـ ٤٩ و ٦٣ و ٦٦ و ٧٤ و ٧٥ وما بعدها ، عماد الدين الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ـ القاهرة ١٣٢١ هـ ـ ص ١٧ ـ ٢٥ و ٣٦ ـ ٥٠ ، و ١٤٠ ـ ٢٦٠ و ٣١٤ ـ ٣١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ص ١٤٨ وما بعدها و ١٥٧ وما بعدها و ١٨٥ وما بعدها . راجع أيضا Vartan le Grand, R. H. C. - Doc. Arm., I, Paris, 1869, 439; Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, tr. by M. J. Hubert, New York, 1941, 108—118, 124 ff.

والكتاب الأخير مترجم شعرا عن الفرنسية القديمة ، ويتألف من أكثر من اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، وهو مذيل بتعليقات وحواش قيمة بقلم الأستاذ جون لا مونت . راجع أيضا عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الايوبى (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ١٠٠ ـ ١٥٠ .

الميلادى) بالاخفاق والخذلان [1] . ولم يكن مصير آخر الحملات الصليبية ، وهى التى قام بها لويس التاسع ملك فرنسا على تونس سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠م)، بأحسن حظا من الحملات السابقة [2] .

هكذا اخفقت جميع الحملات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الإسلامى ، بعد يقظته وافاقته ، وباتت مستعمرات اللاتين المتبقية لهم بالساحل الشامى تنتظر مصيرها المرتقب، واصبحت المسألة مسألة زمن فحسب . ومن موقف القوة واصل المماليك البحرية خلال النصف الثانى من القرن السابع

---

(١) المقصود حملة جان دى برين صاحب عكا والملك الاسمى لبيت المقدس فى عهد الملك الكامل محمد بين سنتى ٦١٥و٦١٨ هـ (١٢١٨ – ١٢٢١م)، وحملة لويس التاسع ملك فرنسا فى عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب بين سنتى ٦٤٦ و ٦٤٨ هـ (١٢٤٨ – ١٢٥٠ م) . والمكتبة العربية غنية بالمؤلفات الحديثة فى تاريخ هاتين الحملتين ، وبخاصة الحملة الثانية ، نذكر منها تأليف محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ـ القاهرة ١٩٦١ ؛ حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى «حملة القديس لويس على مصر والشام» القاهرة ١٩٤٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الاوسط ـ القاهرة ١٩٥٩ ، وهزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ١٩٦٠ . فضلا عن المراجع التى أرخت للعدوان الصليبى عامة ، وتناولت فيما تناولته تاريخ هاتين الحملتين .

(٢) وذلك فى عهد صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر. أنظر عن الحملة المقريزى : الخطط ـ جـ ١ ـ ص ٢٢٣ ؛ والسلوك ـ جـ ١ قسم ٢ ـ ص ٣٦٤ – ٣٦٥ و ٥٠٢ و ٥٩٠ . وكذلك ;Joinville, op. cit., 404 ff.

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur, R. H. C. - H. Occ., II, Paris, 1859, 458 ff.

الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وكان قد استتب لهم الامر فى مصر والشام ، مهمة طرد الفرنج من الشريط الضيق بالساحل الشامى . فاستولى الظاهر بيبرس على انطاكية فى رمضان ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م)، بينما وقعت طرابلس فى يد المنصور سيف الدين قلاوون فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (ابريل ١٢٨٩ م) . وفى جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ (مايو ١٢٩١م) استولى الاشرف خليل على عكا آخر معاقلهم الهامة بالاراضى المقدسة . وفى نفس السنة تم تصفية باقى الجيوب الصليبية فى فلسطين ، عندما طردهم المسلمون من بيروت وصيدا وصور وحيفا [١] . وبذلك انهار سلطان الفرنج تماما فى منطقة الشرق الادنى العربى .

---

(١) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ـ نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة ـ جـ ٢٨ ـ لوحة ٩٤ وما بعدها ، المقريزى : السلوك ـ جـ ١ ـ قسم ٢ ـ ص ٥٦٧ وما بعدها ، و جـ ١ قسم ٣ ـ ص ٧٤٧ وما بعدها . راجع أيضا , A.S. Atiya
The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938 ,29 ff.

المغول والعدوان الصليبي

إن الحديث عن حركات الترابط العربي في مواجهة العدوان الصليبي ، يستوجب الاشارة إلى عنصر ثالث استجد على مسرح الاحداث في اواسط القرن السابع الهجري (أواسط القرن الثالث عشر الميلادي) ، وكان له دوره في الصراع الدائر بين العرب واللاتين في منطقة الشرق الأدنى ، ونعني بذلك المغول . فقد اصبح المغول منذ اوائل ذلك القرن خطرا يهدد القارة الأوروبية . ورأى البابوات واهل الغرب أن خير وسيلة لاتقاء شرهم ، هي العمل على كسبهم إلى الكاثوليكية ، واستمالتهم اليهم في حرب صليبية مشتركة ضد الاسلام في الشرق ، في وقت كان فيه افرنج الشام يتلقون اشد الضربات من العرب ، وفي وقت كانت فيه اوروبا الغربية تستجدي العون لحملة عدوانية جديدة .

وتنفيذا لهذه السياسة ارسل البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) أثناء انعقاد مجلس ليون الكنسي سنة ١٢٤٥ عدة سفارات إلى المغول أخفقت في تحقيق اهدافها الرئيسية ، وإن كانت قد أبعدت الخطر المغولي عن أوروبا . وتجددت المفاوضات بين الطرفين بعد ذلك بفترة قصيرة . ففي اثناء اقامة الملك الفرنسي لويس التاسع في جزيرة قبرص قبل ابحاره في حملته الصليبية إلى مصر ، ارسل إليه احد حكام المغول في وسط فارس سفارة تحمل رسالة يطلب فيها الاشتراك مع اللاتين في حملة صليبية كبيرة للاستيلاء على البيت المقدس من العرب [1] .

---

(١) Joinville, op. cit., 74; Rothelin, op. cit., 569 ff.; cf. also A.S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 233 ff.

ويجد الباحث المدقق أن كلامن اللاتين والمغول كان يعمل على استغلال الآخر لمصلحته الشخصية . فاذا نظرنا إلى المغول نجد انهم اخذوا منذ وقت غير قريب فى وضع الخطط الاولية لتكوين امبراطورية قوية لهم تدخل فى نطاقها بلاد العراق والشام . وكانوا يعرفون مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية فى بغداد آنذاك ، وأنها لابد أن تسقط عند أول ضربة توجه اليها . وادركوا ايضا أن مصر ، باعتبارها زعيمة العالم العربى ، يستحيل أن تقف من هجومهم موقف المتفرج ، بل سوف تهب لصد عدوانهم الذى كان يهددها هى الاخرى تهديدا مباشرا . لذا وجدوا أن اسلم الطرق لتحقيق مآربهم فى رقعة الشرق الادنى العربى هى العمل يدا واحدة مع الصليبيين الغربيين للقضاء على سلطان مصر وازالة قوتها من الميدان . وكان طبيعيا أن يرحب الجانب اللاتينى بذلك ، بل كان هذا غاية ما يتمناه ملك الفرنسيين (١) .

لكل هذا رحب الملك اللاتينى بفكرة التعاون المشترك مع المغول . وأوفد إليهم بعثتين بين سنتى ١٢٤٩ و ١٢٥٢ ، لم يكن مصيرهما بأحسن من مصير السفارات السابقة (٢) .

ومع ذلك ، فقد كان لهذه التحركات والاتصالات المغولية اللاتينية نتيجة أخرى هامة . إذ تأكدت أطماع المغول فى المنطقة العربية . وما هو أهم ، استشعار مصر والعرب فى الشرق الأدنى بالخطر الجديد المقبل من الشرق الأقصى ، وادراكهم ما كانت تعنيه فكرة تكوين جبهة لاتينية مغولية مشتركة

---

(١) حسن حبشى: الشرق العربى بين شقى الرحى-ص ٣٦ — ٣٧ ، وكذلك
L. Bréhier, L'Eglise et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1928, 222.

(٢) Joinville, op. cit., 74, 258 ff.; cf. also Atiya, op. cit., 243 ff.

ضد العروبة والاسلام . فكانوا يعلمون جيـدا أن المغول يستعدون لتوسيع رقعة أملاكهم على حساب الخلافة العباسية التى كانت تحتضر آنذاك . ويعلمون كذلك أن انشغالهم فى صراعهم مع الصليبيين سوف يسهل على المغول مهمتهم . وهذا ما حدث . ففى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) قضى المغول على الخلافة العباسية فى بغداد . وانطلقوا بعـد ذلك يعيثون فسادا فى ربوع الشام الذى كاد أن يقع فى أيديهم .

كل هـــذا أيقظ العرب فى مصر والشام ، وأدى إلى تكتيل القوى وحشد الجهود فى الوقت الذى كانوا يوجهون فيـه الضربات القوية إلى مستعمرات اللاتين المتبقية لهم فى الشام . وانتهى الأمر بأن ألحقت مصر بالعنصر المغولى هزيمة ساحقة فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)[١] . وبذلك تم انقاذ مصر والشرق الأدنى العربى كله من خطـر ماثل . وتفرغ المماليك لتأديب الصليبيين وطردهم من بقية المعاقل الساحلية التى كانوا يتحصنون بداخلها .

(١) أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ ـ ص ٤٣٨ وما بعدها و ٤٤٦ و ٤٧١ وما بعدها ؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ص ١٩٨ وما بعدها ؛ المقريزى : الخطط ـ جـ ٢ ـ ص ٢٣٨ .

العدوان الصليبى فى القرن الثامن الهجرى

(ق ١٤ م)

لم تمت الفكرة الصليبية تماما بسقوط عكا وآخر معاقل اللاتين فى شرق البحر المتوسط فى أواخر القرن الثالث عشر ، وبكبح جماح المغول فى عين جالوت ، بل نجد أنها استمرت خلال القرن الرابع عشر . ولكن فى ظروف تختلف عن الظروف التى بدأت فيها . كان الغرب الأوروبى آنذاك فى فترة تغير وانتقال ، ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله. وقل اهتمام الناس بالفكرة الصليبية نفسها نتيجة الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانية . هذا فى الوقت الذى أصبح فيه للمسائل التجارية الاعتبار الأول . وأخذ الصراع بين شقى العالم معنى جديدا . إذ أصبح الادعاء الدينى ادعاء ظاهريا مكشوفا بعد أن اختلط بمصالح عالميةمادية. وخير مثال لذلك المواطن الايطالى الذى فقد اعتقاداته الدينيةالوسيطة بسبب الكسب المادى من التجارة. وعلى هذا كانت محاولة احياء الروح الصليبية فى الغرب بعدسقوط عكا عملية مقضيا عليها بالفشل منذ البداية.

حقا ، لقد قام كثير من الدعاة والمبشرين بالدعوة لها فى شتى أرجاء الغرب . ومن أشهر هؤلاء بطرس ديبوا ، ورامون لال ، وبطرس توما ، وفيليب دى مزيير . وحقا ، قامت عدة حملات صليبية لتحقيق نفس الأطماع القديمة ، من أهمها حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥، وحملة لويس الثانى دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦. ولكن تلك الحملات فشلت فى تحقيق أهدافها . وتعتبر الحملة الأخيرة منها، هى آخر. محاولة جدية قامت بها أوروبا بأسرها لا لاخراج الاتراك العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب دولة المماليك

أيضا . ولكن الحملة تحطمت فوق صخرة المقاومة العربية، كما تحطمت الحملات السابقة لها وأصبحت فكرة الاستيلاء على الأراضى المقدسة حلما من أحلام الماضى البعيد حاول اللاتين عبثا احياءها، ولكن النتيجة لم تكن فى صالحهم على الإطلاق.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على مسرح الأحداث وقتذاك للتعرف على الأسباب التى أدت إلى انتصار العرب وخذلان اللاتين ، نجد أن دول الشرق الأدنى ، ونعنى مماليك مصر والدولة العثمانية ، كانت فى حالة من القوة والانتعاش تساعدها على تسديد ضربات قاصمة إلى الصليبيين الغربيين . فى وقت كان فيه الغرب فى حالة ضعف وتدهور وفى فترة تغير وانتقال . لقد كان هذا عصر من عصور القوة العربية الاسلامية، يقابله عصر تفكك وانحلال فى أوروبا .

يقظة العرب فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى
(ق ١٤ – ١٥ م)

وكيفما كان الأمر، فقد كان لهـذا الفشل الذى منيت به أوروبا أثره الكبير على مجـرى الحوادث فى كل من الغرب والشرق الأدنى. إذ انصرف الغرب إلى شئونه الداخلية تاركا نهائيا فكرة الحرب الصليبية. أما فى الشرق الأدنى، فقد أصبح لمصر بحكم مركزها الجغرافى والحربى السيادة المطلقـة على سواحل شرقى البحر المتوسط، وأصبحت تركيا قوة أوروبية إلى جانب كونها قوة آسيوية. وقد فشلت محاولات البابا بيوس الثانى (١٤٥٨–١٤٦٤) الوقوف فى وجـه الأتراك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، لأنه كان فى الواقع يحاول إحياء فكرة أصبحت فى عداد الماضى [1].

---

(١) أنظر ذلك عن Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, 3-9, 17-23, 48-52, 74 ff., 128 ff., 345 ff., 398 ff., 435 ff., 480-3; idem, Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962, 92-111; idem, The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وللمزيد من التفاصيل عن الداعية فيليب دى مزيير وحياته، وهيئة فرسان آلام المسيح التى دعا الى انشائها وأهدافها، انظر A.H. Hamdy, "Philippe de Mézières and the New Order of the Passion," Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Part I, 45 - 50, Part II, 8 — 41.

وفيما يتعلق بحملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية، فقد أشار الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه « الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر » ـ القاهرة ـ طبع دار المعارف ـ ص ٢٣٤ – ٢٣٥ وص ٢٣٤ ح ٢، الى أهم البحوث التى كتبت عن الحملة، بالاضافة الى=

وكما حدث فى أواخر القرن السابع الهجرى (ق ١٣م) ، كذلك كان رد الفعل الطبيعى فى القرن التاسع الهجرى (ق ١٥م) . ويتمثل رد الفعل هذا فى هجمات عربية اسلامية مضادة هدفها طرد اللاتين من المناطق التى كانت لاتزال بأيديهم . وهى تتناول الأتراك العثمانيين وهجماتهم المضادة لهجمات الصليبيين . وكان الصراع فى هذه الفترة فى البلقان والقسطنطينية . إذ أخذ العثمانيون يكتسحون البلقان ، ويسددون الضربات القاصمة إلى الامبراطورية البيزنطية ـ وكانت تعانى آنذاك من الضعف والانحلال ـ إلى أن انتهى الأمر بسقوط عاصمتهـــا القسطنطينية فى أيديهم سنة ١٤٥٣م، فتحقق بذلك أمل كان السلاجقة يسعون اليه فى القرن الحادى عشر . وبسقوطها ينهار آخر صرح من صروح المؤسسات الوسيطة. وكان من نتائج ذلك اعتراف أوروبا بالعثمانيين كقوة أوروبية جديدة رغم أصلهم الآسيوى ودينهم الاسلامى.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقــد قام مماليك مصر بهجماتهم المضادة لهجمات الفرنج ، وكان مسرح الصراع هو أرمينية وقبرص ورودس. وكان موقف مصر بمثابة دفاع هجومى ضد الحروب العدوانية التى كانت أوروبا اللاتينية تشنها تحت شعار الصليب . وكان من نتيجة ذلك انتصار مصر فى ميادين عديدة فوق أراضى الشرق الأدنى ومياه الحوض الشرقى للبحر المتوسط، مدفوعة بدافع الجهاد المقدس باعتباره فرضا واجب الأداء ، يستهدف أساسا

= المصدر الرئيسى المعاصر لها وهو مخطوطة النويرى السكندرى المسماة « الالمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعماية وعودتها الى حالتها المرضية» والتى توجد نسخة خطية منها بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ .

الدفاع عن الوطن العربى والقضاء على أعدائه . وقد بدأ هذا الهجوم المضاد باحتلال المماليك مملكة أرمينية المسيحية عام ١٣٧٥ [1] .

ولضمان احراز انتصارات حاسمة قاطعة ضد باقى الممالك اللاتينية فى شرقى البحر الأبيض حيث يعتصم اللاتين فى الجزر البحرية ، كان من الضرورى على المماليك انشاء اسطول قوى لنقل الجند والعتاد ومهاجمة السواحل. وقد أوقفت الحاجة إلى الاسطول تقدم المماليك قرابة نصف قرن . ولكن يجب ألا ننسى أنه فى خلال هذه الفترة كان لاتراك العثمانيون يكتسحون البلقان ويسددون الضربات القوية إلى الامبراطورية البيزنطية .

وهكذا ، ما أن انتهى الأمر بالشام أولا ، وبأرمينية ثانية ، حتى جاء دور مملكة قبرص اللاتينية التى طالما سببت للشرق الادنى العربى مضايقات ومتاعب كثيرة . وقد بدأ الهجوم المضاد عليها عام ١٤٢٤ م ، وكان المماليك مازالوا يذكرون حملة بطرس لوزنيان على الاسكندرية وما أتته من أعمال العنف والتخريب فى الثغر المصرى ، ومازالوا يذكرون أيضا تلك الجزيرة كقاعدة للعدوان الغربى ، وكمركز لامداداته وتموينه وتجهيزاته العسكرية

---

(١) تكشف مراجع الحركة الصليبية عن تعاون مملكة ارمينية مع كل من الصليبيين والمغول ضد العرب . ويتضح هذا فى مناصرتهم للصليبيين خلال الحملة الأولى . أنظر . Grousset. Hist. des Crois., I, 31 — 43. كما كان ملكهم المسمى هيتوم الأول (١٢٢٦ — ١٢٧٠ م) هو العامل الرئيسى فى اقناع خان المغول بارسال الحملة التى قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨ م . أنظر أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول — ص ٤٥٩ وما بعدها . ومن هنا كان انتقام مماليك مصر من تلك المملكة .

ضد الثغور المصرية والشامية . كل هذا جعل المماليك يقررون غزو الجزيرة تأمينا لديارهم وعقابا للفرنج المعتدين . يضاف الى ما تقدم عامل آخر ، وهو أن الجزيرة غدت وقتذاك مأوى للقراصنة من الفرنج الذين تعاونوا مع آل لوزنيان فى مهاجمة السواحل الخاضعة لسلطان مصر المملوكى ، وأصابوا تجارة المماليك بخسارة كبيرة . وبلغ بهم الأمر أن صاروا فى القرن الخامس عشر خطرا حقيقيا على مصر . لذلك وجه المماليك ثلاث حملات بحرية اليها ، الأولى عام ١٤٢٤ وقد الحقت هزيمة كبيرة بقوات آل لوزنيان . وحدثت الحملة الثانية فى السنة التالية حيث هزمت القوات القبرصية وكبدتها خسائر فادحة وكانت الحملة الثالثة والأخيرة عام ١٤٢٦ . وقد توجهت الى الجزيرة فى عدد ضخم من السفن والرجال فى وقت كانت فيه قبرص تعانى من الضعف والتفكك . وانتهت بانتصار حاسم للمماليك وبأسر ملك قبرص المسمى جانوس Janus الذى دفع الثمن غاليا . اذ لم يطلق صراحه الا بعد الموافقة على دفع غرامة باهظة وجزية سنوية ، وتسلم المملكة كاقطاع من قبل السلطان المملوكى .

ومنذ ذلك الحين أصبحت قبرص قاعدة عربية قوية توجه منها الضربات الحاسمة الى باقى معاقل اللاتين . وكان طبيعيا بعد هذا الظفر الحاسم أن يرنو المماليك بأبصارهم الى ميدان جديد . وكان هذا الميدان جزيرة رودس حيث يعتصم فرسان القديس يوحنا . لكنهم وجدوا مقاومة عنيفة من هؤلاء الفرسان خلال الحملات الثلاثة التى قاموا بها بين سنتى ١٤٤٠ و١٤٤٤ . ولو أن هذه الحملات لم تؤت ثمارها ، إلا أنها نبهت سلاطين الاتراك العثمانيين الذين حاصروا الجزيرة مرتين بهدف امتلاكها . فقد قام السلطان محمد الثانى بالمحاولة الاولى عام ١٤٤٨ ، ولكنها صمدت إلى عام ١٥٢٢ حين استطاع سليمان الاول أن

يستولى عليها فى عهد القائد الاعظم للفرسان فيليب دى مزيير [١] .

هكذا كانت الفكرة الصليبية تلفظ آخر انفاسها فى وقت كانت فيه العصور الوسطى نفسها بمثلها ومبادئها وفلسفتها وأفكارها فى طريقها إلى الزوال ليحل محلها عصر جديد . وأدرك الاوروبيون أن تلك الفكرة بمعناها المألوف لم تعد تصلح قناعا لاخفاء أطماعهم القديمة فى العالم العربى ، بل أصبحت ذكرى لماض بعيد بغيض . وأخذ العالم يتجه نحو مثل ومبادىء مغايرة لما كان معروفا فى القرون الوسطى أيام سطوة الكنيسة وسيطرة البابوية . وأخذت عجلة التاريخ تشق طريقها فى سرعة مذهلة وسط أحداث وتقلبات هامة شهدها عصرنا الحديث . وقامت حربان عالميتان قلبتا الاوضاع وميزان القوى فى العالم رأسا على عقب وظلت أطماع أهل الغرب فى المنطقة العربية كما هى دون تغيير ، بالرغم من التغيير الجوهرى الذى طرأ على كافة الظروف من سياسية واقتصادية واجتماعية و ثقافية وغيرها . لم تزل الاطماع الاستعمارية ولم تتغير ، وإنما الشىء الوحيد الذى زال هو الرداء الذى ألبسوه هذه الأطماع . فبعد أن كان رداء صليبيا فى عصر يقبل مثل هذه الاوضاع ولا يفهم شيئا سواها ، خلع اليوم رداءه وكشف عن حقيقته عارية .

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 463 ff.; idem, Crusade, Commerce and Culture, 129 ff.

وحول استخدام قبرص كقاعدة للعدوان الصليبى ضد مصر وبلدان الشرق الأدنى فى العصر الاسلامى ، أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور): قبرص والحروب الصليبية — القاهرة ١٩٥٧ .

آراء واستنتاجات

مما سبق يمكن أن نستخلص عدة آراء واستنتاجات هامة، نجملها فيما يلي:

أولا : تكشف الخطوط العريضة البارزة التى أوضحناها فى هذا البحث عن فكرة لها مغزاها ودلالتها ، تتعلق بعصور القوة والتماسك والتكتل وعصور الضعف والتفكك والتأخر فى الشرق الأدنى العربى منذ أوائل القرن السابع حتى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر الميلادي . ولماذا كان الخط البياني يرتفع أحيانا ليسجل ذروة القوة والمنعة في المشرق العربي ، ثم لا يلبث أن ينخفض ليشير إلى فترة من فترات التدهور والانقسام والانحلال ، وهكذا . وماذا كانت النتائج الخطيرة المترتبة على هذا التفاوت بين القوة والضعف وبين التماسك والتفكك وبين التقدم والتخلف .

وثمة فكرة أخرى ترتبط بسابقتها ، ونعنى بها تغير ميزان القوى بين الغرب اللاتينى والشرق العربى ، ولماذا كان مركز الثقل يتغير بين القوتين هبوطا وصعودا . ففى الوقت الذى ترجح فيه كفة اللاتين الغربيين ، لم يكن ميزان القوى فى صالح العرب اطلاقا . وبالعكس، عندما ترجح كفة العرب ، كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور فى أوروبا الغربية. ومن هنا عندما يشعر الغرب أنه الأقوى ، كان يقوم بهجماته العدوانية على العالم العربى ، ويحرز عادة انتصارات سريعة على حساب العرب . وعندما يستجمع العرب قواهم ويكتلون أنفسهم ، كانوا يقومون بهجمات وحروب مضادة تنتهي عادة بالحاق الهزيمة والخذلان بالمعتدين ، واستعادة ما استولوا عليه . وباختصار فقد اتخذ العرب في عصور القوة سياسة الهجوم ، بينما التزموا بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم بوجه عام في عصور الضعف . ويرتبط

هذا إلى حد بعيد بالظروف والأحوال السائدة في العالم العربي من سياسية واقتصادية واجتماعية . وما يقال عن العرب يقال أيضاً عن الغرب الأوروبي . ولكن عندما يعتدل ميزان القوى بين الفريقين ، كان هذا يعني نوعاً من المدنة المؤقتة ، أو فترة من التربص والانتظار ، مع الاستعداد والترقب لحين موافاة الفرصة المواتية للانقضاض . والنجاح يكون آخر الأمر لمن تهيىء له الظروف رجحان كفته[١] .

ثانيا : وتنحصر الحقيقة الثانية فى أن الصراع بين الصليبيين اللاتين وبين العرب فى الشرق الأدنى كان يبدأ عادة بهجمات صليبية كتلك التى قام بها الغرب عند بداية الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر ، وحملات القرن الرابع عشر الصليبية ، وكان يعقب كل هجوم غربى يقظة عربية وحملات مضادة لاسترجاع الاراضى المقدسة من أيدى الأوروبيين . ونجد مثلا لذلك فى يقظة القرن السادس الهجرى (ق ١٢م) فى عهد عماد الدين زنكى ونور

---

(١) قسم كل من رينيه جروسيه وستيفن رنسيمان العدوان الصليبي إلى ثلاثة أدوار رئيسية لكل دور ملامحه المميزة ومميزاته الخاصة به ، وجعلا هذه الأدوار أساسا لمؤلفيهما الكبيرين عن ذلك العدوان . الدور الأول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين الغربيين على العرب فى الشرق الأدنى ، والدور الثانى وهو فترة تعادل القوى بين الفريقين المتحاربين ، والدور الثالث والأخير وهو الذى رجحت فيه كفة العرب على الفرنج وانتهى بانتصارهم عليهم وطردهم من الأراضى المقدسة فى أواخر القرن الثالث عشر . أما الحملات الصليبية المتأخرة التى قامت فى القرن الرابع عشر ، فهى من وجهة نظرهما أثر من آثار الحركة الصليبية ، أو حسبما أطلق عليها جروسيه ، هى خاتمة الحروب الصليبية . وجدير بالذكر أن كل فكرة من الأفكار التى ذكرناها فى هذا الاستنتاج فى حاجة إلى دراسة مستقلة قائمة بذاتها .

الدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، والتى انتهت بالحاق الهزيمة بالفرنج عندما استولى المماليك على انطاكيـــة وطرابلس وعكا فى أواخر القرن السابع الهجرى (ق ١٣م) . وكذلك الهجمات العربية الإسلاميـة المضادة التى قام بها الأتراك العثمانيون ومماليك مصر في القرنين التاسع والعاشر الهجريين (ق ١٥ م) ردا على الحروب الصليبية المتأخرة في القرن الثامن الهجري (ق ١٤ م).

ثالثا : وهنا يجب أن نفرق بين اليقظات العربية الكبرى التى ابرزها العدوان الصليبى ، مثل يقظة القرن السادس الهجرى ، وحركة الافاقة التى بدت منذ أواخر القرن الثامن وخلال القرن التاسع الهجرى، اللتان تكتلت فيهما القوى والجهود فى مصر والشام والعراق وأثمرتا حملات هجومية دفاعية كان لها أكبر الأثر فى طرد الفرنج الغرباء من رقعة الشرق الأدنى العربى ومن الجزر البحرية التى كانوا يعتصمون بها فى البحر المتوسط ــ يجب أن نفرق بين هذه اليقظات الكبرى وبين حركات الترابط والتجمع العربى العـادى أمام أى خطر صليبى يتهدد العرب خـلال الصراع اليومى بين الطرفين فى المنطقة . ونضرب مثلا لذلك بالحركات الفردية التى كان العراق وشمال الشام مسرحا لها بعد بداية الحركة الصليبية بقليل ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا . وكذلك موقف المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام من دسائس ومؤامرات الملك اللاتينى لويس التاسع فى أواسط القرن السابع الهجرى (ق ١٣م) بعد هزيمته على ضفاف النيل وذهابه إلى سورية لتجديد العـدوان ، ومحاولة الايقـاع بين الفريقين مستغلا فى ذلك بعض الخلافات الطارئة بينها . وكانت النتيجة عكس ما توقع ، إذ تنبه الفريقان المتعاديان إلى خطة الملك الصليبي ، وبادرا بالاتفاق والتراضي ،وبذلك أضاعا عليه فرصة كان يحلم بها [1] .

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف . لويس التاسع فى الشرق الاوسط ــ ص ١١٦ وما بعدها .

ولايضاح هذه الفكرة وبيان فلسفتها نقول إن العدوان الصليبي كان يبدأ عادة عندما يكون الشرق الأدنى العربي منقسما على نفسه ، وفي حالة ضعف وتفكك بينما الغرب في مركز القوة ، وينتهي غالبا بانتصارات سريعة خاطفة على حساب العرب . ثم يعقب ذلك استشعار العرب أنفسهم بالخطر وعواقبه ، ومبادرتهم بالتكتل والتجمع . « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وغالباً ما تكون حركات التجمع العربي هذه محلية وفي مناطق الخطر نفسها ، بقصد العمل على منع امتداده واستفحاله . وكانت تحرز نجاحا جزئيا وليس نهائيا أو حاسما . ولكنها كانت تعتبر البداية الطبيعية لحركة اليقظة والافاقة الشاملة ، التي تؤدي الى التئام شمل الشعوب العربية في المنطقة في وحدة واحدة متكاملة تحس بالخطر المشترك وبأبعاده ، وتدرك عواقبه ومضاعفاته ، وتستعد لدفعه والقضاء عليه . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

وكانت هذه المراحل المتتابعة تؤدى فى نهاية الأمر إلى المرحلة الأخيرة الكبيرة ، ونعنى بها الجهاد المقدس . « إنفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » والمقصود بذلك الجهاد العسكرى المسلح فى سبيل الله والعروبة والوطن العربى . ويكون لهذا الجهاد نتائجه الحاسمة . إذ يؤتى ثماره الطيبة بطرد الدخلاء من المنطقة العربية ، وإحراز نصر مبين عليهم . « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

ولو نظرنا إلى العدوان الصليبى نظرة الفاحص المدقق المتعمق ، وتتبعنا مراحله من بدايتها إلى نهايتها ، أمكننا تفهم هذه الفكرة التى أسلفنا إليها .

رابعا : كذلك فان الدور الذى قام به المغول فى أواسط القرن السابع الهجرى (ق ١٣م) ، والسفارات المتبادلة بينهم وبين اللاتين ، والتلاحم الحربى بينهم وبين العرب – يكشف عن استنتاجات تميط اللثام عن حقيقة دوافع العدوان الصليبي. إذ كان هدف اللاتين تحويل المغول إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكى لتقوى بهم جبهتهم ، وبذلك تقع الأراضى المقدسة بين المغول وأوروبا الغربية ، فلا يكون هناك مفر من بقائها فى قبضة الغربيين بقاء دائما. ثم أن المغول أصبحوا طرفا ثالثا فى الصراع الدائر فى الشرق الأقصى فوق أراضى المشرق العربى وعلى حسابه .

وثمة سؤال يثيره منطق الحوادث وهو : ماذا كان المصير لو تم فعلا تكوين جبهة لاتينية مغولية متماسكة ضد العرب والاسلام أدت إلى حملة صليبية مشتركة؟ تتوقف الإجابة عن هذا السؤال إلى حد بعيد على تحليل الأحوال السائدة فى كل من الغرب اللاتينى والشرق الأدنى العربى وقتذاك . فقد كان الغرب يعانى من الضعف والتدهور[1]، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحرب الصليبية [2] . وكان افرنج الشام يستجدون العون والمساعدة من أهل الغرب

---

(١) Cf. Bréhier, op. cit., 226; Stevenson, op. cit., 331.

(٢) Calmette, op. cit., 418. – ويعبر عن ذلك أصدق تعبير شاعر فرنسى عاصر فترة احتضار الفكرة الصليبية ، ويدعى وليم رتبف Rutebeuf (١٢٤٥ – ١٢٨٥) . إذ قال فى قصيدة له بالفرنسية الوسيطة إنه من الحمق والغباء أن يخاطر الانسان فى حرب صليبية خارج بلاده طالما كان بوسعه أن يتصل بالله فى وطنه وأن يعيش فى يسر ونعمة وسلام . وفيها يتحدث عن رجال الدين ، كبارهم وصغارهم ، فى سخرية لاذعة وتهكم مرير . فيقول =

دون جدوى ، ولم يبق لهم سوى بعض الحصون والمعاقل المبعثرة على امتداد الساحل الشامى.[1] أما المماليك فى مصر والايوبيون فى الشام ، فقد كانوا مسيطرين على الموقف ، خاصة بعد اتفاقهم . وكانوا يستعدون فعلا لتوجيه الضربة النهائية الى افرنج الشام [2]. لكن هذا لم يكن ينتظر أن تحرز أى حملة لاتينية مغولية مشتركة ضد العرب نجاحا ما . وكان أقصى مايمكن أن تحققه مثل تلك الحملة،لوخرجت الى حيز التنفيذ، هو إثارة بعض المتاعب والمضايقات للجانب العربى فحسب . والدليل على ذلك أن المماليك تمكنوا من إلحاق الهزيمة بكل من الصليبيين والمغول متفرقين وفى وقت متقارب[3].

خامسا : غير خاف أن انكشاف الاتجاهات الاستعمارية التوسعية للحركة الصليبية منذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها أقدام الصليبيين الأراضى المقدسة ،

=انهم لاهم لهم سوى اشباع بطونهم المتخمة . ويختتم القصيدة بنفس الفكرة التى بدأها بها ، وهى الدعوة إلى بقاء الغربيين فى بلادهم. أنظر G. Masson, Mediaeval France, London, 1888, 96-7. والواقع أن الفكرة الصليبية لم تعد تلقى القبول والرواج ، خاصة بين المتعقلين المتحررين من أهل الغرب . وقد أخذ الناس ينفضون عنها ، وبدأ كل فرد يتجه إلى مصالحه الخاصة ، والدول إلى مشاكلها الداخلية. وجدير بالذكر أنه ظهرت الكثير من المؤلفات التى تسخر من مثل هذه الأوضاع السائدة فى المجتمع الغربى الوسيط وقتذاك.

(١) Cf, Grousset., Crois., III, 494; idem, Sum of Hist., 177 ff.

(٢) أنظر المقريزى: السلوك - جـ ١ قسم ٢ - ص ٣٨٢ ومابعدها. وكذلك Joinville, op. cit ., 294.

(٣) موضوع ترابط مصالح الصليبيين والمغول فى منطقة الشرق الأدنى العربى ، فى حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة والتحليل .

قد ساعد على ظهور حركات الترابط والتكتل العربي في المنطقة، تلك الحركات التي وصلت إلى دور النضج والكمال فيما يعرف باليقظة العربية الشاملة. ولا شك أيضا أن مظاهر العنف والقسوة والتعصب وانعدام الرحمة التي تميز بها اللاتين ، كانت هي الأخرى عاملا هاما في اثارة الروح القومية بين العرب ضد أولئك القوم . كل هذا أدى آخر الأمر الى وحدة العرب وطرد الدخيل .

سادسا : كانت مصر خلال هذا الكفاح الدامي المرير عبر القرون المتعاقبة هي قلب العروبة النابض بالحياة ، ومعقلها المنيع، ومركز امدادها بالرجال والمال والميرة والسلاح . وإذا استثنينا الحملتين الأولى والثانية ، حينما كانت دولة الفاطميين بمصر في طور الاحتضار ، ولم يكن بوسعها هي أو غيرها من دول الشرق الأدنى الوقوف في وجه الدخلاء ، نجد أنه ما من حملة صليبية أخرى أمكنها الوقوف في وجه القاهرة منذ أن استكمل الكيان العربي بنائه أيام صلاح الدين الأيوبي . ولذا انحصر هدف الغرب منذ ذلك الحين في إزالة قوتها من الميدان ، يقينا منه أنه لن يتم له المحافظة على وجوده بالشرق إلا بقهر مصر أولا وقبل كل شيء (١) . وقد أوضح هذه الحقيقة المؤرخ الصليبي

---

(١) تعرض الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه «مجمل تاريخ دمياط» — الاسكندرية ١٩٤٩ ، لهذه الحقيقة بالدراسة والتحليل . فقد جاء في ص ٢٠ من الكتاب المذكور أن الحركة الصليبية أصابها انقلاب خطير منذ أواخر عهد الملك العادل ؛ « إذ لاحظ الصليبيون أن مصر هي حصن الاسلام القوي وضيعته الغنية، وأنها مصدر الامداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح الخ ... » . أنظر حول هذا الموضوع كذلك المراجع التالية :

St. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, 218; idem, The Story of Cairo, London, 1924, 193; J. =

بجان دى جـوانفيل Jean de Joinville (١) صاحب المذكرات الفريـدة فى بابها عن حملة لويس التاسع على مصر . وكان هذا من الاسباب التى أدت إلى انتقال مسرح النزاع من الشمال فى الشام إلى الجنوب فى مصر ابتداء من القرن الثالث عشر ، بعد أن هيأ لها جهادها ضـد الغزاة مركز القوة والصـدارة فى العالم العربى فى العصر الاسلامى (٢) .

Pirenne, Les Grands Courants de l' Histoire Universelle, II; =
Neuc. del, 1947, 106; J. Calmette, Le Monde Féodal, Paris,
1937, 408.

(١) Joinville, op. cit., 100.

(٢) حول فكرة اتجاه الصليبيين نحو مصر بهدف الاستيلاء عليها، أنظر محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ـ القاهرة ١٩٦١ ـ ص ٤ ـ ٣٦ ؛ حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى ـ القاهرة ١٩٤٩ ـ ص ١٠ وما بعدها . كما كشف لنا الدكتور جمـال الدين الشيال فى مؤلفه : مصر والشام بين دولتين ـ القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٤٧ ـ ٨١ و ٩٩ وما بعدها ، المعالم الواضحة والخطوط العريضة لهذه الفكرة ، عنـــدما تناول قصة الأحداث التاريخية فى مصر والشام بين عامى ٥٥٨ و ٥٦٩ هـ ، إبان تدهور الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية . وهى قصة التنافس بين كل من نور الدين سلطان حلب وأمورى ملك بيت المقدس اللاتينى فى الظفر بمصر، وتوالى حملات كل منها عليها ، تلك الحملات التى انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه فى ربيع الآخر ٥٦٤ هـ. أنظر أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية ـ جـ ٢ ـ ص ٦٧٩ وما بعدها .

وتناول هذه الفكرة بالدراسة والبحث استاذنا الدكتور جمال الدين الشيال فى دراسته التحليلية المقارنة للوثيقة رقم ١٩ ضمن مجموعة الوثائق الفاطمية، وهى خاصة بتولية ابن شاور نيابة الوزارة عن ابيه . أنظر مجموعة الوثائق الفاطمية ـ جـ ١ ـ ص ١٦١ ـ ١٧٠ . ومن المؤرخين الغربيين الحديثين ـ

ومن مصر أيضا كانت تنبعث دائما صيحة الجهاد ضد الغزاة . فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزه المصريون على أعدائهم من انتصارات. وكانت دعوة الجهاد كافية لاثارة الحماسة بين الناس. فكل مشترك فى صد هذه الغزوات مجاهد ، وإذا مات فى ساحة الوغى فهو شهيد . وكان للخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق المنابر أكبر الاثر فى الحث على الجهاد ضد الغزاة . وقد قام الجامع الازهر بدور رئيسى فى تنبيه الاذهان إلى الخطر الجاثم فى أرض فلسطين . فخطب العلماء ورسائل الحكام مؤيدة بآيات من كتاب الله تهدد العدو وتنذره بسوء الخاتمة « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، و « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ». وآيات تستنهض عزائم العرب أن يحملوا أعباء الجهاد دفاعا عن مقدساتهم ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » . وآيات تبشر بالنصر وتؤكده « ألا إن نصر الله قريب » ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »(١).

= الذين تعرضوا لهذه الفكرة فى شىء من التفصيل والتحليل، جوستاف شلومبرجيه فى كتابه الخاص بحملات أمورى الأول ملك بيت المقدس ضد مصر. أنظر
G. Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jérusalem en Egypte au XIIe. siècle, Paris, 1906.

(١) نجد أمثلة عديدة على ذلك فى ابن واصل : مفرج الكروب — ج٢ — لوحة ٣٦٤ب (النسخة المصورة)، المقريزى: الخطط — ج١ — ص ٢٢٠، والسلوك — ج ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة — ج ٦ — ص ٣٦٧. والمصادر العربية بصفة عامة زاخرة بالادلة على ذلك أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل — القاهرة ١٩٦٠ — ص ٣٥ و ١١٧ .

وقصارى القول أن مصر هي التي تصدت لقتال الصليبيين والمغول ودونت بجهادها ضدهم صفحة مجيدة في تاريخها . وهي التي طردت الفرنج آخر الامر من الشريط الساحلي الضيق الذى كانوا يستعمرونه بالساحل الشامي ، ومن الجزر البحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وقامت بدور لا ينكر في تكتيل القوى العربية لمواجهة هذا العدوان . ثم هي التي حملت لواء الزعامة إبانه، وتحمل شعبها الكثير من الاعباء في صدده سواء أكان موجها ضدها مباشرة مثل حملة كل من جان دى برين ولويس التاسع ، أو ضد غيرها من البلدان العربية كالحملة الثالثة . وان دل هذا على شيء فانما يدل على ما كانت تتمتع به مصر في العصر الاسلامي من مكانة وقوة وبأس .

سابعا . وهناك حقيقة جوهرية ترتبط بسابقتها، وهي أن الحملات الصليبية التي تعرض لها الشرق الأدنى الاسلامي ، كشفت عن ضرورة الاهتمام بأمر الجيش ليصبح قوة رادعة ، وبالاسطول كذلك حيث تمتد الشواطىء العربية لمسافات طويلة . لقد حتم عليها موقعها الجغرافي والاستراتيجي وأطماع الغزاة فيها ، الاهتمام الزائد بتدعيم قواتها البرية والبحرية (١) .

وجدير بالذكر أن المصادر العربية في العصر الاسلامي تعرضت للجيش والاسطول في العهدين الأيوبي والمملوكي، وأولتها الكثير من العناية . ويرجع ذلك إلى أن هاتين الدولتين قامتا على فكرة الجهاد ضد الغزاة فهما دولتان محاربتان جاءتا لطرد الصليبيين وغيرهم من الدخلاء من المنطقه العربية، وضربتا

---

(١) تمتاز أوراق البردى العربية بأهميتها الكبرى في دراسة التاريخ الاسلامي والحياة الاجتماعية ونظم الحكم والادارة . ويهمنا هنا أنها تضم عددا من الوثائق التي تسلط الأضواء على نظام الجيش والأسطول . أنظر عن ذلك جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية — جـ ١ — ص ٣ — ٤ وص ٣ ح ١ .

أروع الأمثال التى سجلها التاريخ المصرى الوسيط فى الكفاح ضد المغيرين .

وهـذا يفسر سر اهتمام الايوبيين والمماليك بأمر الجيش الذى كان يعتبر من أفضل جيوش العصر الوسيط فى الشرق والغرب اعدادا وتنظيما وتدريبا وتسليحا. (١) إذ نعرف أنه كان يتألف من فرسان ومشاة ، ويتكون من طوائف وفرق وطبقات ، فضلا عن جماعات المتطوعة والعربان والمرتزقة .(٢) وكان هذا الجيش مجهزا بكل ما أنتجه العصر الوسيط من أسلحة ومعدات ، أهمها السيوف والسهام والرماح والنشاب والدبابيس والقسى والدروع والمتاريس ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر والنيران الأغريقية (٣) . وكان المحاربون المصريون يستخدمون هذه الأسلحة فى قتالهم مع أعدائهم الصليبيين ، كما كانوا على علم بها قبل أن يعرفها الغربيون أنفسهم. وكانت مصر تنفق على جيشها هذا بسخاء ، مع بناء الحصون والقلاع والاستحكامات ودور حفظ السـلاح الـلازمة له ، وصيـانتها وتزويدها بما يلزمها من العـدد والرجـال

---

(١) انظر القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا ــ ج٤ ــ ص١١-١٦.

(٢) انظر القلقشندى : المرجع السابق - ج ٤ - ص ١٤ وما بعدها ، ابن منكلى : كتاب الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية ــ نسخة بالتصوير الشمسى بمكتبه كلية آداب الاسكندرية ـ لوحة ٧٧ .

(٣) القلقشندى : نفس المرجع - ج ٢- ص١٣٥ وما بعدها و ج ٤-ص ١١ وما بعدها ، ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ـ القاهرة ١٩٤٣ - ص٣٥٤، ابن منكلى: الاحكام المملوكية ـ لوحة ٨ ـ ٩ و ٢٣ وما بعدها. راجع أيضا C. Cahen, Un traité d' armurerie composé pour Saladin, Bulletin d' Etudes Orientales, XII, 1947-1948, 15 ff.; Oman, Hist. of the Art of War, II, 46 ff.

والعتاد . (١)

وأما البحرية فقد وجه لهـا المصريون أيام العدوان الصليبي عناية خاصة، لعلمهم أنها من أهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها وضد الغزوات المفاجئة التى كانت الموانى والمياه العربية تتعرض لها بين وقت وآخر . (٢) وكان الأسطول المصرى يتكون من قطع مختلفة فى أشكالها وأحجامها وأسمائها والأغراض التى تستخدم من أجلها ؛ وأهمها الشوانى والحراريق والمسطحات والبطس والطرائد والمرمات والغربان . وكان بعضها يستخدم لنقل المقاتلين كالشوانى ؛ وكان البعض الآخر كالحراريق يستخدم لنقـل الأسلحة النارية المعروفة وقتذاك ،والبعض لحمل الخيل كالطرائد،والبعض لحمل الميرة والسلاح كالمرمات ، وهكذا .(٣)

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب-نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة -جـ ٢٧ - لوحة ٩٢. راجع أيضا كتاب الدكتور نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ـ القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) تلقى المصادر الاسلامية الأضواء على ذلك ؛ اذ تذكر أنه عندما كانت الموانى المصرية أو الشامية تتعرض لعدوان صليبى ، كانت مصر تبادر باعداد السفن وتجهيزها وارسالها على وجه السرعة إلى الجهات المعرضة للخطر لمنع الاعداء من النزول فيها أو احتلالها . ونجد امثلة لذلك فى ابن واصل :مفرج الكروب - النسخة الخطية المصورة- جـ ٢ - لوحه ١٣٥٦ و ٣٦٨ ا، النويرى : نهاية الارب - النسخة الخطية المصورة - جـ ٢٧ - لوحة ٩١ - ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك - جـ ١ قسم ٢ - ص ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣) فيما يتعلق بقطع الاسطول المصرى فى العهد الأيوبى،انظر ابن مماتى: كتاب قوانين الدواوين ـ ص ٣٣٩ وما بعدها . راجع أيضا المقريزى :=

والمهم هنا أن هذه العناية الفائقة التي وجهتها مصر في عصور القوة والتماسك إلى الجيش والأسطول كان لها ما يبررها. وقد أوحى هذا إليها بالبراعة والخلق والابداع في شئون الحرب والقتال ضمانا للتفوق العسكري، وحفظا على أمن المنطقة العربية وسلامتها. وعلى هذا يمكن القول بأن هناك صلة وثيقة بين مركز مصر الجغرافي والاستراتيجي والغزوات التي تعرضت لها هي وغيرها من دول الشرق الأدنى العربي، وبين حتمية وجود قوة عربية ضاربة متفوقة. وكانت هذه القوة - هي حصن الدفاع الأول عن مصر وبلدان المشرق العربي ضد المعتدين؛ وإليها يرجع الفضل فيما لحق بالصليبيين والمغول من هزائم وويلات.

ثامنا: ان الحديث عن حركات اليقظة والافاقة العربية ودور مصر الايجابي فيها بفضل قوة جيشها وبحريتها في العصر الإسلامي، يقودنا إلى مسألة أخرى جوهرية تؤكدها الأحداث التي كانت المنطقة مسرحا لها. وهي أن فكرة توحيد الجبهة العربية في كيان متكامل غير منفصم، ووحدة واحدة لا تتجزأ، تعتبر مرحلة هامة أساسية من مراحل جهاد العرب ضد المغيرين. ذلك أن الوطن العربي عندما كان منقسما على نفسه في بداية العدوان الصليبي، لم يكن بوسعه اطلاقا الوقوف في وجه الصليبيين، أو احراز أي نصر حاسم عليهم. وان كل الحملات التي قامت ضد الدخيل كانت حملات ضعيفة لم يقدر لها النجاح

= الخطط - جـ ٢ - ص ١٩٤ - ١٩٥، والسلوك - جـ١ قسم٢ - ص ٣٣٩ ح ١.
ومن المراجع الحديثة، انظر عبد الفتاح عباده: سفن الاسطول الاسلامي وأنواعها ومعداتها في الاسلام - القاهرة ١٩١٣ - ص ٤ وما بعدها؛ ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والاسلام - بغداد ١٩٤٨ - ص ٦٦ ح ٤.

بسبب الانقسامات. ولكن عندما تكتل العرب، وواجهوا العدو صفا واحدا، وأخيرا وطنا واحدا ، سهل عليهم احراز النصر النهائي عليه .

وهذه ظاهرة دورية عامة فى تاريخ العروبة والاسلام منذ الفتح حتى يومنا هذا . وقد أثبتت الاحداث أنه ضمانا للنصر الحاسم الاكيد ، يجب أن تسبق عملية الجهاد الأكبر عملية أخرى لا تقل عنها خطرا وشأنا ، ألا وهى عملية توحيد الجبهة العربية ، فهى مرحلة أولى ضرورية من مراحل هـذا الجهاد . والدليل على ذلك أن صلاح الدين ، ومن قبله نور الدين محمود ، لم يقوما بجهادهما المعروف ضد الفرنج الا بعد تأمين الجبهة العربية وتوحيدها . وفى ذلك يقول المؤرخ وليم ستيفنسون W. Stevenson فى كتابه «الصليبيون فى الشرق » ، ان السياسة العامة التى سار عليها الزعماء والحكام العرب هى الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق ، أو المغامرة فى حرب خطيرة مع اللاتين فى الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه دولتهم [١].
وان كان هذا لا يمنع من القول انه كان يحدث فى بعض الأحيان أن تسبق عملية الجهاد المقدس عملية التوحيد، أو أن تسير العمليتان جنبا إلى جنب، وذلك عندما يجد العرب أنفسهم نتيجة لظروف خارجة عن اراداتهم مضطرين إلى الاحتكاك بأعدائهم.

---

(١) Stevenson, Crusaders in the East, 723 - 4.
انظر ايضا جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية ــ ص ١٩ . وفى هذا يقول الدكتور جمال الدين الشيال «ولم يكن صلاح الدين ليستطيع القضاء على مملكة بيت المقدس اذا كان حاكما لمصر وحدها ، او حاكما لسورية وحدها . وانما هو نجح فى القضاء عليها عندما دخل المعركة كحاكم واحد لدولة واحدة ، وكقائد واحد لجيش واحد، يرفوف عليه علم واحد» أنظر وحدة مصر وسورية ــ ص ٢٠ .

وكانت مثل هذه المصادمات أو المناوشات غير حاسمة أو قاطعة . والخلاصه أن العرب خرجوا من كفاحهم مع الفرنج بدرس ينحصر فى ان عملية تكتيل القوى العربية مرحلة اساسية لاغنى عنها يجب ان تسبق مرحلة الجهاد العسكرى ضد العدو ضمانا لنجاحه .

تاسعا : لقد أوضحت الأزمات التى تعرض لها العالم العربى فى العصر الاسلامى أن الشعوب العربية لم تكن بمعزل عما كان يجرى حولها من أحداث وتقلبات . فقد أثبتت وعيا كبيرا ، وفهما عميقا لمجريات الأمور والاحوال ، وأكدت وجودها وشخصيتها حتى فى عصور الضعف والتفكك . لقد أدت المقاومة الشعبية داخل الوطن العربى دورها كاملا إلى جانب القوات النظامية فى الذود عن حياض الوطن . وآية ذلك المواقف المشرفة التى وقفها الشعب العربى فى مصر جنبا الى جنب مع جيشه فى الدفاع عن بلاده ضد ملك الفرنسيين لويس التاسع فى منتصف القرن الثالث عشر ، مما سهل على الجيش مهمة الاجهاز على قوات العدوان [1] .

وثمة مسألة أخرى وهى أن اللاتين عندما كانوا يهاجمون احدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منهم والاغارة على مستعمراتهم بالاراضى المقدسة . وتروى المراجع أن مصر عندما كانت تتعرض لعدوان صليبى ، يبادر الشعب السورى بالهجوم على معاقل اللاتين

---

(١) انظر عن ذلك ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب - (النسخة المصورة) - جـ ٢ - لوحه ٣٦٦ أ ؛ المقريزى : الخطط - جـ ١ - ص ٢٢٩ ؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - جـ ١ قسم ٢ - ص ٣٥٠ ؛
Joinville, op. cit., 120; Rothelin, op. cit., 605.
أنظر أيضا لوحة رقم ٤ بآخر الكتاب .

بالساحل الشامى ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عما هم قادمون عليه . وكان هذا هو نفس مايحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان غربى ، فيبادر المصريون إلى مساندة اخوانهم فى الشمال ضد العدو المشترك[١].

وغير خاف أنه وجد كذلك ارتباط روحى قوى بين العرب فى المشرق والمغرب خلال تلك الحقبة من الزمن . فبينما كان الاولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان اخوانهم المغاربة يجاهدون هم أيضا ضد الأوروبيين في غربي ذلك البحر ، وحتى قبل أن يبدأ العدوان الصليبي على المشرق العربي في اخريات القرن الحادي عشر[٢].

---

(١) تجد أمثلة لذلك فى الكتب التالية ابن واصل: مفرج الكروب (النسخة الخطية المصورة) جـ ٢ ـ لوحة ٣٥٧ ب ؛ المقريزى: السلوك ـ جـ ١ قسم ٢ ـ ص ٣٣٧. أنظر أيضا الحقائق التاريخية الهامة المتعلقة بوحدة مصر وسورية فى العصر الإسلامى ، والتى أشار اليها الدكتور جمال الدين الشيال فى مستهل محاضرته « وحدة مصر وسورية فى العصر الإسلامى » ـ ص ٣ و ٩ .

راجع كذلك : G. Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne, IV, Paris, 1937, 379.

(٢) أنظر سعد زغلول عبد الحميد: « العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب » ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ المجلدان السادس والسابع ـ الاسكندرية ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ـ ص ٨٤ وما بعدها . وفيما يتعلق بالصراع الدائر فى المغرب الاسلامى بين المسلمين والمسيحيين فى القرن العاشر أنظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ـ بيروت ١٩٦٣ ـ ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ و ٣٣١ ـ ٣٣٢. كما استعرض الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه: المغرب الكبير ـ الجزء الثانى : العصر الاسلامى ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ، جهاد المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ضد الممالك النصرانية فى اسبانيا . أنظر صفحات ٧١٨ ـ ٧٣٨ و ٧٩٨ ـ ٨٠١ و ٨٠٥ ـ ٨١٥ =

وقد لعب المغرب فى العصر الاسلامى الوسيط دوره فى الجهاد ضد الصليبيين. فبالاضافة إلى إسهامه فى الجهاد فى الاندلس ضد الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا والبرتغال فى عصر المرابطين والموحدين ، وفيما بعد فى عصر بنى نصر، وهو جهاد لم ينقطع خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرى (القرون ١٢ — ١٤ م) ، وذلك على الرغم من مؤامرات سلاطين غرناطة واتفاقهم مع القشتاليين ضد بنى مرين — فان المغرب العربى أسهم أيضا فى مدافعة الصليبيين الغربيين فى مصر والشام ، وبخاصة إبان التكتل العربى فى منطقة الشرق الادنى الذى يتضح فى عصر صلاح الدين الايوبى (١) .

فكل هذا يعبر فى الواقع عن وحدة متينة ، ربط فيها الجهاد ضد العدو المشترك بين العرب جميعا من المحيط الى الخليج .

عاشرا . تقودنا الآراء والنقاط السابقة إلى نتيجة أخيرة تتعلق بفكرة

=و ٨١٩ — ٨٢٨ من الكتاب المذكور. راجع أيضا ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس — ترجمة الدكتور السيد عبدالعزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى — القاهرة ١٩٥٦ — ص ١٢٠ وما بعدها وص ٢٤٥ ؛ وكذلك محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب — تونس ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤ م — ص ١٣٥ ومابعدها ؛ Painter, op. cit., 191 ff.

(١) أنظر الخطابات المرسلة من صلاح الدين إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وإلى رسوله لدى الملك المذكور سيف الدولة بن منقذ ، فى كتاب ابن واصل : مفرج الكروب — نشر الدكتور جمال الدين الشيال — جـ ٢ — ص ٤٩٦ — ٥١٧ . راجع أيضا مقال الدكتور السيد عبد العزيز سالم وعنوانه « الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الإسلامى » — مجلة العلوم — بيروت — مارس ١٩٦٢ . يرجع أيضــا إلى المراجع الواردة بالحاشية السابقة .

الوحدة العربية المتكاملة ، وعما إذا كانت مثل هذه الهزات العنيفة التي كان العالم العربي في العصر الاسلامي يتعرض لها بين وقت وآخر هي السبب في خلقها ، أم أنها كانت أعمق من ذلك بكثير ، وأن تلك الهزات كانت مجرد عامل ساعد على ايقاظها وبعثها من مرقدها ، أو بكلمة أخرى أيها أسبق الوحدة أم اليقظة ؟

تعرض لهذا الموضوع بعض الكتاب المحدثين ، نذكر منهم جوستاف فون جرونيباوم الالماني G. von Grunebaum ، وكلود كاهن الفرنسي C. Cahen (١) . وخلاصة رأيهما أن الخطر الصليبي لم يكن الدافع الاساسي لحركة الوحدة العربية ، التي يمكن ارجاع أصولها إلى ماقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بفترة غير قصيرة . كما ذكرا أن الاستعمار الغربي لم يهدد إطلاقا قلب العالم العربي ، ولم يستطع بالرغم من كل شيء أن ينفذ إلى صميمه . وهذه حقيقة واضحة ، فلم يستطع الصليبيون في أقصى تقدم لهم ، بل لم يستطيعوا على الاطلاق ، التوغل في قلب العالم العربي ، ولم يتمكنوا بالمرة من مدن مثل القاهرة أو دمشق أو بغداد أو حلب أو الموصل . وكل ما أمكنهم الاستحواذ عليه ، شريط ساحلي ضيق مستطيل على امتداد الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كان ينكمش ويمتد تبعا للظروف والأحوال في كلا العالمين الغربي والعربي . فضلا عن بعض الجزر البحرية التي كان اللاتين يتحصنون بها ، ويشنون منها حملاتهم العدوانية على بلدان الشرق الأدنى . وكان يهم الفرنج الاستحواذ على المناطق الساحلية بصفة خاصة حتى يكونوا على مقربة من ديارهم بالغرب إذا دعا داعي الحرب .

---

(١) أنظر جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦ ـ ص ٥٠ و ٥٢ ، وكذلك C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des croisades, Paris, 1940, 374 - 7 .

وكيفما كان الأمر ، فان جرونيباوم وكاهن ، وان لم يبتا برأى نهائى في هـذا الموضوع ، إلا أن أحدث البحوث التاريخية والأثرية أثبتت وجود الوحدة العربية منذ أن وجد العرب ، وذلك في ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية ، ونعني بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تنعكس عليها آمال الشعوب ومثلهم ومبادئهم وأفكارهم ومناهجهم فى الحياة (١) . وإذا تتبعنا هذه النظرية فى شتى مناحى الحضارة والحياة عند العرب من المحيط إلى الخليج ، نجـد أنها نظرية أصيلة يؤيدها الواقع ، وتعبر عن وحدة عضوية شاملة لها أصولها وجذورها وعناصرها منذ قرون عديدة مضت . وحدة فى اللغة، وفى الاصل وفى الجنس ، وفى الأرض ، وفى التاريخ . فضلا عن وحـــدة فى التقاليد والعادات والثقافة والفكر والنظم الاجتماعية والتراث الحضاري العريق[٢] . وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها أحداث الزمان للوقوف في وجه العدوان الأجنبي في شتى صوره ومظاهره ، وفي مختلف عصوره ، وأيا كان مصدره[٣] . ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت الآن عامرة بالكتب والبحوث العلمية القيمة التي تتناول مقومات الوحدة العربية وأسسها في دراسة جادة واعية[٤] .

(١) أنظر عن ذلك مؤلف الدكتور أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) - القاهرة ١٩٦١ - ص٤٣ - ٤٩ ، وجـ ١ (القاهرة ١٩٦٥) ص٢١٠ .

(٢) Cf . B . Lewis, The Arabs in History, London, 1958,9 - 13.

(٣) أنظر جمال الدين الشيال : وحدة مصر وسورية - ص ٣ .

(٤) تناول الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى فى كتابه «الكيان العربى بين المقومات والامكانيات - بيروت ١٩٦٥» بالدراسة والبحث والتعريف ، الكيان القومى العربى وأسسه ومقوماته . أنظر أيضا المراجع المتعلقة بالقومية والوحدة العربية فى كتابى: العرب والروم واللاتين - ص ٢٤٦ ح١.

وعلى هذا يجب أن نفرق بين فكرة الوحدة العربية كحقيقة تاريخية لها أصولها وجذورها ومقوماتها ، وبين حركات اليقظة والافاقة التى كانت تنبعث عندما يستشعر العرب الخطر ، ويفيقون من سباتهم . فكان هذا ، بطبيعة الحال ، مما يذكى تلك الوحدة ويؤكد أصالتها ووجودها .

وللعروبة تاريخ طويل مع الاستعمار حافل بالوان التضحية والجهاد والاستشهاد فى سبيلها عن عقيدة وإيمان . ولقد استمرت هذه الرابطة العربية المقدسة تؤدى دورها بنجاح تام ، وتدفع عن العروبة غائلة المعتدين، وبخاصة عندما تشتد الازمات ويدق ناقوس الخطر . وكثيرا ماأثار هذا ذعر الغزاة، وأوقع الخبل والاضطراب فى صفوفهم . فكانوا يتحينون الفرص للنيل منها والتشكك فيها . كما كانوا يستخدمون سلاحهم المعروف ، سلاح التفرقة والايقاع وبذر بذور الخلاف بين أبناء الوطن العربى الواحد تحقيقا لاطماعهم واتجاهاتهم الاستعمارية . وكانت جهودهم فى هذا السبيل تذهب فى عصور القوة والتكتل العربى هباء منثورا . (١)

---

(١) تعرضنا بايجاز للاستنتاجات الثلاثة الأخيرة فى كتاب العرب والروم واللاتين — ص ٢٤٢ وما بعدها .

خاتمــــة

ليست الآراء والاستنتاجات التى توصلنا إليها فى هذه الدراسة التحليلية للعدوان الصليبي على الشرق الأدنى العربى مجرد صدفة . إنما هى ظواهر طبيعية منطقية تنير السبيل أمام الشعوب العربية فى حاضرها ، وهى تستجمع قواها وتكتل جهودها من أجل مستقبل أفضل . وهى أيضا أحكام وقواعد صحيحة ، أشبه ما تكون بالقوانين العلمية التى لاتخطىء . فضلا عما فيها من عظات وعبر ودروس .

ثم أن هذه الأفكار يمكن أن تنبثق عنها آراء ونظريات أخرى جديدة قد تغير الكثير من الشائع المعروف عن الحركة الصليبية . وبعضها لايزال ينتظر دراسات دقيقة مستفيضة تسد نقصا فى زاوية من زوايا العدوان الصليبي لايزال الغموض يكتنفها ، أو تعدل وجهة نظر فى حاجة إلى التصحيح والتصويب .

من هذه الأفكار نذكر ، على سبيل التمثيل ، فكرة انتقال العدوان الصليبي من الشام فى الشمال إلى الديار المصرية فى الجنوب مبكرا فى القرن السادس الهجرى وخلال القرن السابع الهجرى (ق ١٢ - ١٣ م) ؛ وفكرة الجهاد فى الاسلام والحرب عند المسيحيين الغربيين وأثر الجهاد المقدس بالنسبة للعرب كفرض واجب الاداء فى دفع العدوان الصليبي عن أراضيهم ومقدساتهم؛ وترابط مصالح الغربيين والمغول فى فترة من فترات العدوان الصليبي ضد العرب فى الشرق الأدنى ؛ وفكرة تغير ميزان القوى بين اللاتين والعرب ، مع بيان الأسباب والمسببات المؤدية إلى هذا التغيير والنتائج والآثار المترتبة عليه؛ وفكرة مركز

الثقل بين شقى العالم وقتذاك وفلسفتها، وما يتصل بها من التزام سياسة معينة دفاعية كانت أم هجومية ، والفوارق الدقيقة بين الوحدة واليقظة والتجمع العربى العادى، وما يعنيه كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة وايديولوجيته، ثم دور الحركة الصليبية كعدوان توسعى استعمارى اتسم بالبربرية والتعصب والعنف فى إنماء الروح القومية عند العرب ضد الغزاة ، وموقف جزيرة قبرص عندما كانت خاضعة للاتين الغربيين أثناء العدوان الصليبى ، وكيف كانت مصدر متاعب ومضايقات لمصر وبقية دول الشرق العربى بسبب قربها منها من ناحية وقربها من مراكز امداداتها بالغرب الأوروبى من ناحية أخرى . وكذلك الصلة بين العدوان الصليبى الغربى وبين وجود قوة عربية ضاربة تحمى مصر والشرق العربى وتضمن للعروبة الأمن والسلامة ، ولماذا وجب أن تكون القوات البرية فى الأراضى العربية والقوات البحرية فى المياه العربية فى حالة يقظة دائمة وتفوق واضح. ثم دور الشعوب العربية فى المغرب الإسلامى فى المساهمة فى مدافعة العدوان الصليبى عن دول الشرق الأدنى . وأخيرا دور القاهرة الطليعى باعتبارها قلعة النضال والدرع الواقى للعالم العربى ضد أى عدوان خارجى يقع عليه .

كل فكرة من هذه الأفكار يصح أن تكون نواة لدراسات تحليلية مستقلة تثمر بحوثا طيبة قيمة تضيف جديدا إلى العلم والتاريخ والتراث الإنسانى بوجه عام، وإلى العرب والعروبة والمكتبة العربية بوجه خاص .

مصادر البحث ومراجعه

أولا ـ المصادر الاصلية :

أ ـ المصادر العربية

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

١ ـ منتخبات من كتاب « الكامل فى التاريخ » ، أنظر
R. H. C. - H. Or., t. I, Paris, 1872 & t. II, le. partie, Paris, 1887.

٢ ـ « تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل » ، أنظر
R. H. C. - H. Or., t. II, 2e. partie, Paris, 1876, 5 - 375.

ابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥م) أبو الفضل محمد :
الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩ .

ابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٨م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم :
سيرة صلاح الدين « السيرة اليوسفية » المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٤ .

ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد:
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ٨ جـ ـ القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ .

ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد على بن محمد:
ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن عمر :
البداية والنهاية فى التاريخ ـ ١٤ جـ ـ القاهرة ١٣٥١ ـ ١٣٥٨هـ .

ابن مماتى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) أبو المكارم أسعد :
كتاب قوانين الدواوين ـ القاهرة ١٩٤٣م .

ابن منكلى (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧م) محمد بن منكلى :
كتاب الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ـ نسخة بالتصوير الشمسى بمكتبة آداب الاسكندرية .

ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم:

١ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ ٢ جـ ـ نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩ تاريخ .

٢ ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ ٣ جـ (حتى سنة ٦١٥هـ) ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ .

ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر ابن عمر بن محمد :

تتمة المختصر فى أخبار البشر ـ ٢ جـ ـ القاهرة ١٢٨٥هـ .

أبو شامه (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) عبد الرحمن بن اسماعيل :
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ـ القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .

أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك عماد الدين أبو الفداء اسماعيل :
المختصر فى أخبار البشر ـ ٤ جـ ـ استانة ١٢٨٦هـ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ جـ ٦ ـ القاهرة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

أبو الفرج (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) غريغوريوس أبو الفرج الملطى :
تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ .

السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين:
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - ٢ جـ - القاهرة ١٣٢٧ هـ .

عماد الدين الأصفهانى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) أبو عبد الله محمد بن صفى الدين:
الفتح القسى فى الفتح القدسى - القاهرة ١٣٢١ هـ .

القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا - ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .

الكتبى (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر :
عيون التواريخ - نسخة بالتصوير الشمسى لمجلد مكتوب عليه أنه الجزء العشرون ، وهو يبتدىء من سنة ٦٤٥هـ وينتهى إلى سنة ٦٧٠هـ - محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ .

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد :
١ - المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جزءان - القاهرة ، ١٢٧٠ .
٢ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الأول والثانى ، كل فى ثلاثة أقسام (حتى سنة ٧٥٥هـ) - نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .

٣ - كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زياده - القاهرة ١٩٤٠ .

٤ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد :
نهاية الارب فى فنون الأدب - ٥٥ مجلدا - نسخة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ب ــ المصادر الأجنبيـــة

Albert d'Aix, Historia Hierosolomitana. Ed. R.H.C.-H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 265 - 713).

Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, trans. from the Old French by M. J. Hubert. New York, 1941.

Anna Comnena, The Alexiad. English Trans. by Elizabeth A.S. Dawes. London, 1928.

Baudri de Bourgueil, Historia Jerosolimitana. Ed. R.H.C.-H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 1—111).

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. Ed. R.H.C.-H.Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 1—181).

Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium. Ed. R.H.C.-H.Occ., III. Paris, 1866. (pp. 311—485).

Grégoire le Prètre, Chronique. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I. Paris, 1869 (pp. 151—201).

Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos. Ed. R.H.C.-H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp 113—263).

Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C.-H.Occ. t.I, 2e. partie. Paris, 1844. (pp. 1—1134).

Hagenmeyer, H. (ed.), Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, 1901.

Jean de Joinville, Histoire de Saint Louis. Ed. M. N. de Wailly. Paris, 1874.

Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., t. I. Paris, 1869. (pp. 1—150).

Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem. Ed. R.H.C.-H.Occ., III. Paris, 1866 (pp 231 —307).

Robert le Moine, Historia Iherosolimitana. Ed. R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866. (pp. 717—882).

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229—1261). Ed. R.H.C.-H.Occ., II. Paris, 1859. (pp. 489—639).

Vartan le Grand, Extrait de l'histoire universelle: Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I. Paris, 1869. (pp. 431—443).

ثانيا ـ المراجع الحديثة :

أ ـ المراجع العربية والمعربة

أحمد فكرى (دكتور) : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ـ القاهرة ١٩٦١ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

١ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ـ بيروت ـ ١٩٦٣ .

٢ ـ المغرب الكبير ـ الجزء الثانى: العصر الاسلامى ـ الاسكندرية ١٩٦٦ .

٣ ـ الصلات التاريخية بين مصر والشام فى العصر الاسلامى ـ مقال بمجلة العلوم ببيروت ـ عدد مارس ١٩٦٢ .

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٦٠ .

بروفنسال (ليفى) : الاسلام فى المغرب والاندلس ـ ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ـ القاهرة ١٩٥٦ .

جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الإسلام ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦ .

جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ ـ مصر والشام بين دولتين ـ القاهرة ١٩٤٧ .

٢ ـ مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ـ الاسكندرية ١٩٤٩ .

ـ الاسكندرية ـ طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٤ ـ وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى ـ المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ١٩٥٨/٥٧ ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٥ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية ـ الجزء الأول : وثائق الخلافة والوزارة ـ الطبعة الثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ ـ لويس التاسع فى الشرق الأوسط وقضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية » ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢ ـ هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٣ ـ العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ـ الاسكندرية ١٩٦٣ .

٤ ـ الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ العدد ١٦ ـ السنة ١٩٦٣/٦٢ ـ الاسكندرية ١٩٦٣ ـ (ص ١٨٣ ـ ٢١١) .

حسن حبشى (دكتور) :

١ ـ الحرب الصليبية الأولى ـ القاهرة ١٩٤٧ .

٢ ـ نور الدين والصليبيون ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٣ ـ الشرق العربى بين شقى الرحى «حملة القديس لويس على مصر والشام» ـ القاهرة ١٩٤٩ .

ديفز (هـ . و .) : أوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن للموحدى ـ مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) ـ الاسكندرية ١٩٥٣ . (ص ٨٤ ـ ١٠٠) .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ ـ قبرص والحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ الحركة الصليبية ـ صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٦٣ .

عارف باشا العارف : تاريخ القدس ـ القاهرة ١٩٥١ .

عبد الفتاح عباده : سفن الأسطول الاسلامى وأنواعها ومعـــداتها فى الاسلام ـ القاهرة ١٩١٣ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

١ ـ الناصر صلاح الدين الايوبى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٢ ـ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٦٦ .

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ ـ مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ ـ الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) ـ الاسكندرية ١٩٥٩ .

كلارى (ر .) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٤ .

كوبلاند (ج.و.) وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ــ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زياده ــ القاهرة ١٩٥٨ .

كولتون (ج.ج.) عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ــ ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف ــ الاسكندرية ١٩٦٤ .

لطفى عبد الوهاب يحيى (دكتور): الكيان العربى بين المقومات والامكانيات ــ بيروت ١٩٦٥ .

محمد مصطفى زياده (دكتور) : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ــ القاهرة ١٩٦١ .

ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ــ بغداد ١٩٤٨م .

هارتمان (ل.م.) وباراكلاف (ج.) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ــ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ــ الاسكندرية ١٩٦٦ .

ب ــ المراجع الأجنبيـــة

Atiya, A. S.,

1 — The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 — Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Bréhier, L., L'Eglise et l'Orient au moyen âge. Paris, 1928.

Cahen, C.,

1 - La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris, 1940.

2 - Un traité d'armurerie composé pour Saladin, Bulletin d'Etudes Orientales, t.XII, 1947-1948.

Calmette, J., Le Monde Féodal. Paris, 1937.

Cantor, N.F. (ed.),The Medieval World: 300-1300. New York, 1963.

Gabrieli, F., Les Arabes (Gli Arabi). Traduit de l'Italien par Marie de Wasmer. Paris, 1963.

Grousset, R.,

1. Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.

2. The Sum of History. Oxford, 1951.

Hamdy, A. H.,

1. «The Western Attitude to Islam as Viewed by Arnold of Lübeck,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. X, — Dec. 1956, Alexandria, 1956 (pp. 77-84).

2. «Philippe de Mézières and the New Order of the Passion,» Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria, Universitsy, Part I, Vol. XVII - 1963, Alexandria, 1964. (pp. 45 - 56); Part II, Vol. XVIII-1964, Alexandria, 1964, (pp. 1-41).

Hitti, P. K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lane-Poole, St.,

1. The Story of Cairo. London, 1924.

2. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

Lewis, B., The Arabs in History. London. 1958.

Lot, F., Les Invasions Barbares. Paris, 1942.

Masson, G., Medieval France. London, 1888.

Oman, Ch., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2. vols. London, 1924.

Painter, S., A History of the Middle Ages: 284-1500. London, 1966.

Pirenne, H.,

1. Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948.

2 Economic and Social History of Medieval Europe. London,1961.

Pirenne, J., Les Grands Courants de l'Histoire Universelle. T. II: de l'Expansion Musulmane aux Traités de Westphalie. Neuchatel, 1947.

Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades. Ed. A.O.L., I. Paris, 1881 (pp. 1-224).

Runciman, S., A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954-5.

Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades. Vol. I: The First Hundred Years, ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Stevenson, W., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, New York, 1960.

Trevelyan, G , A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Wiet, G., Histoire de la Nation Egyptienne. t, IV: l'Egypte Arabe de la conquête Arabe a la conquête Ottoman. Paris. 1937.

بيان بالمختصرات

A.O.L. - Les Archives de l'Orient Latin.

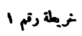
R.H.C.-Doc. Arm - Recueil des Historiens des Croisades. Documents Armeniens.

R.H.C.-H.Occ. - Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux.

R.H.C.-H.Or. - Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux.

الخرائط

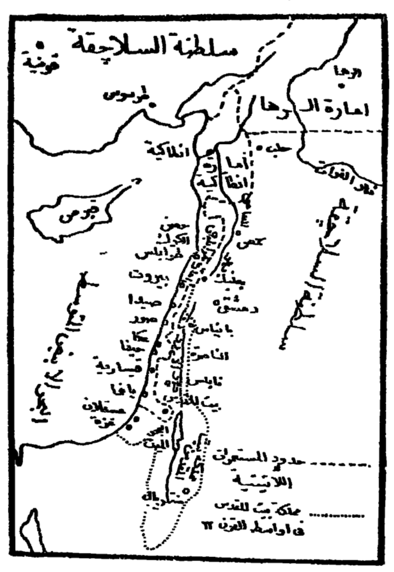
اللوحات



مملكة ارمينية
الرها
الرقة
الفرات
تدمر
دمشق
كريت
قبرص
البحر الابيض المتوسط
حيفا
الرملة
عسقلان
غزة
بيت المقدس
البصرة
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
الفيوم
أسوان
المدينة
مكة

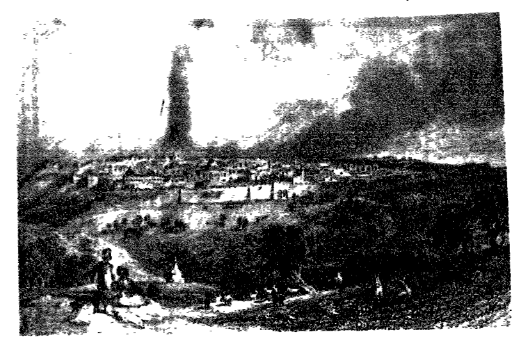
دولة المماليك البحرية
فى أواسط القرن الثامن الهجرى
(أواسط القرن الرابع عشر الميلادى)

خريطة رقم ٢



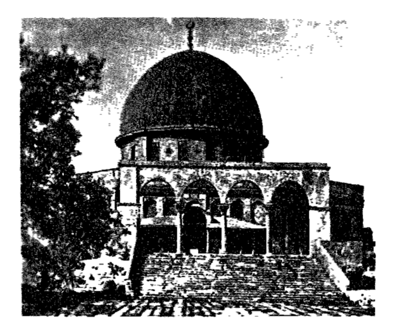
المستعمرات اللاتينية فى الشرق الأدنى العربى إبان العدوان الصليبي

لوحة رقم ١



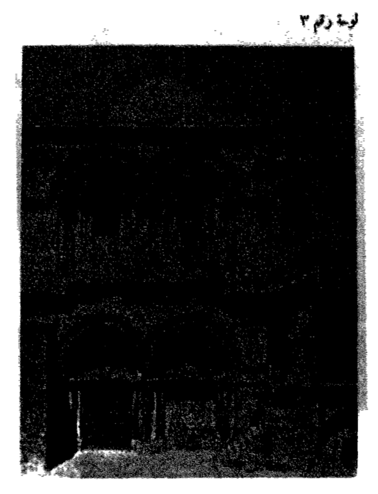
بيت المقدس كما يبدو من جبل الزيتون
وتظهر في الصورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى اليسار ،
وكنيسة القيامة خلف قبة الصخرة إلى اليمين .

لوحة رقم ٢



قبة الصخرة

لوحة رقم ٣



كنيسة القيامة

لوحة رقم ٤



تضامن الجيش والشعب العربي فى مصر ضد قوات العدوان
أثناء معركة المنصورة
(منتصف ق ٧ هـ / ق ١٣ م)

فهرس عام

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

محتويات البحث